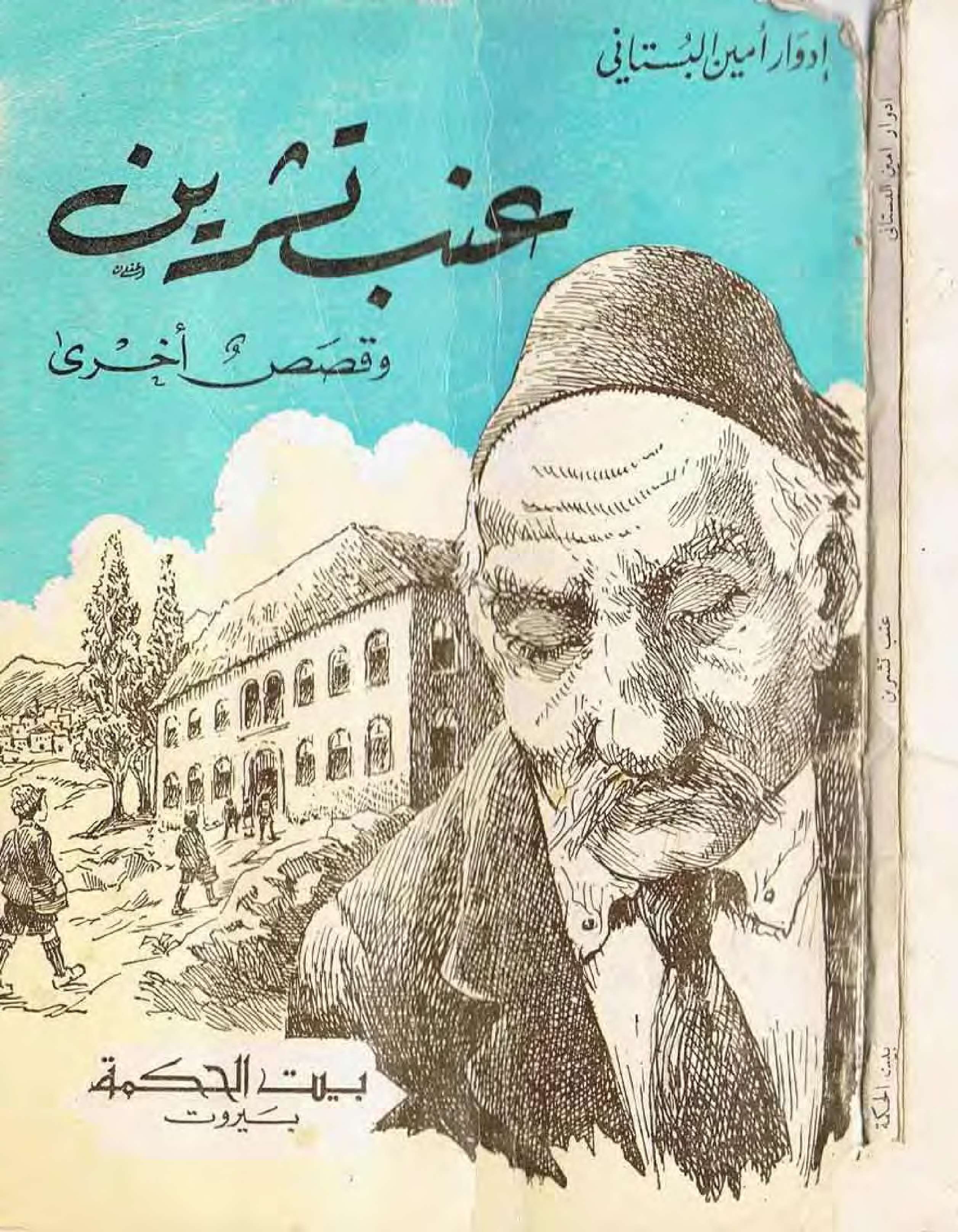


ادوار امين البستاني
عنب تشرين
بيت الحكمة

منشوراتنا القصصية

إدوار أمين البستاني

عنب تشرين

قصص قصيرة

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة السادسة ، بيروت — لبنان ، تشرين اول (اكتوبر) ١٩٩١

عنب تشرين

بَوارق الفجر الفضيّ تزحف ببطء على قمم « حوش اللوز »... وقبل أن تشتعل رؤوس بيوتهـا القرميد بوهج الصبح المطلّ، تعالى الضجيج من بيت « الأستاذ » ، وهرول الصبيّ إلى أمّه مذعوراً ...

ومع أنّ الذي حصل لم يكن غريباً ولا استثنائيّاً ، فلم أكن متوقّعاً أن يحصل بهذه السرعة وبهذا التوقيت .

★

حملتُ قرار التعيين بيدي ، وهرولت من مكتب وزارة التعليم إلى أقرب سيّارة وقلت لسائقها :

- إلى قرية « حوش اللوز » .

وأغمضت عينيّ في المقعد الخلفيّ ، ولم أفتحها إلاّ

على طريق ضيّقة تنتشر على معابرها صغارُ الحصى ، وتحفّ بها مزالقُ خطرة . وقال لي السائق متبرّماً :

ـ أيّة داهية بعثت بك إلى هذه الأرض المنفيّة ؟!

قلت :

ـ هي مشيئة إدارة التعليم .

فهمدر بكلمات غير مسموعة ـ لم أشكّ في أنّها كانت لعنات حادّة ـ ومضت السيّارة تدبّ فوق الحفر ... ولمّا أطلّت علينا القرية قال لي :

ـ هذه هي المحروسة يا معلّم .

وسكت هنيهة قبل أن يسأل بامتعاض :

ـ أين تريد أن تنزل ؟

أشَرْتُ عليه أن يسأل عن بيت المختار ، وما لبث أن تجمهر الصبيةُ حول السيّارة في ساحة القرية ، ومضى أحدهم يضرب بيديه ويقول ضاحكاً ببله وبلادة منفِّرَين :

ـ هذا هو المعلّم الجديد ... هذا هو المعلّم الجديد !

دوّر الصبيُّ فمه ، واتّسعت عيناه ، فارغتين ، ثم والى بين التصفيق بيديه وإطلاق ضحكات منرفزة ، وهو يكشّ بعض الذباب عن وجهه البُومي ، فيما مضى الباقون يتأمّلون سحنتي تحت غشاء العرق والغبار .

المصطبة الممتدّة أمام بيت المختار ودكّانه المجاور مجلّلةٌ بالعريش على رتاج مرتفع وأعمدة عالية . نادى المختار زوجته صائحاً :

ـ تنين كازوزة يا مرّوش » .

وخرجت المرأة من وراء حاجز الدكّان تقيسني بنظراتها المتفحّصة تبصبص بها عينان غارقتان تحت الشملة الغامقة اللون . ودنت منّا في جسمها المدوّر بطيئةً عرجاء ، وصدر المختار ينتفخ من الكرم المعتاد ، على جسم ناحل طويل يعلوه طربوش أغيَد ملويّ على أريحيّة ...

وبعد مجاملات وهذر ، قال لي وهو يتحصّن بلهجته الآمرة :

ـ نزور الآن بيت الأستاذ !

وتساءلت في خِفية ، فأدرك ما بي ، وقال ضاحكاً :

ـ لا يليق بك أن تبدأ الدروس قبل زيارة الأستاذ « عبّود » . وهو معلّم القرية الوحيد منذ ثلاثين سنة. لقد أحيل أخيراً إلى التقاعد ، وستحلّ أنت محلّه ... هيّا بنا ... هيّا ...

لم يمهلني سلطانُ القرية الصغير ، فمشيت وراءه مذعناً . وبرز الأستاذ للقائنا ، في قوام معتدل لم ينحنِ بالرغم من الأربعة والستّين ، يفيض تورُّد وجنتيه وحمرة طربوشه المتوهّج ... وتكتكت سبّحته وهو يشير مرحّباً :

ـ تفضّلوا ... تفضّلوا ... زيارة كريمة .

وقدّمني المختار :

ـ الأستاذ الجديد !

فرمقني بنظرات فاحصة لم تدارِ استعلاءه :

ـ تشرّفنا ... زيارة كريمة ... زيارة كريمة !

ودخلنا داراً مقبّبة بعقد حجريّ ، رُصّت في جوانبها المَساندُ والمقاعد والأرائك حول مدفأة مطفأة، تستعدّ للشتاء الزاحف على الأبواب .

وأمر سيد الدار بأكواب الشراب فجاءت بها العجوز.

ثم قال المختار وهو يتلمّظ براحة بعد الرشفة الأولى من شراب التوت المحلّى :

ـ جئت بالأستاذ الجديد للزيارة الواجبة .

فردّ المضيف منتشياً :

ـ لا يفوتكم شيء من الواجب !

وحاولت أن أقول شيئاً بين هذين الجبلين المتحاورين، فاهتزّ كوب الشراب بيدي ، وصدر صوتي مخنوقاً :

ـ أملي أن أكون عند حسن الظنّ !

ـ فيك الكفاية يا بنيّ !

وتدخّل المختار مؤكّداً ولاءه للرجل الوقور :

ـ إنّك تترك فراغاً كبيراً يا أستاذ ، من الصعب أن يملأه أحد من بعدك .

ـ هذه حال الدنيا يا شيخ « عبّاس » ... هذه حال الدنيا ... نحن خدمنا ، والآن جاء دورُ غيرنا ...

ثم أردف بعد فترة سكوت :

- الأيّام أيّام الشباب !

وندّت عن العبارة الأخيرة رجفةٌ ونبرة كئيبة ، لم يَخْفَ على المختار وقعُها ، فردَّ على الفور :

- ولكنّ البركة ، كلّ البركة ، في الخبرة وطول المراس . أنت يا أستاذ سيّدها .

وجاءت العجوز بالنوبة الثانية من الضيافة ، تحمل طبقاً من العنب التشرينيّ الأحمر الناضج ، مع قصاع فارغة ومناديل طعام . فنهض الأستاذ يقوم بواجب التكريم :

- هذا عنب « مرجة السودا » ... سيعرفها أستاذنا الجديد إذا طال به المقام هنا !

قدّم عنقوداً للمختار . ثم انتقى آخر لي ، وهو يعقّب :

- عنب تشرين فيه حلاوة الآخرة ، كلْ منه ولا تأسف ! إنّه لذيذ !

كانت غصّته مع العبارة الأخيرة أكثر جلاء . وكانت حادّة جارحة ، فازدردتُ مع الحبّة الناضجة شعوراً

بالضّيق والرحمة والارتباك .

★

قرّر المختار أن أبيت أيّاماً في بيته ريثما يجد لي غرفة في أحد بيوت القرية . وكانت غرفتي في بيت المختار لاصقة بالدكّان ، وتطلّ من جهة أخرى على بيوت القرية كلّها . وقد أويت إليها ذلك المساءَ أستحضر واجبات الغد ، وأنا هناك المعلّم الوحيد ، أوكلت إليَّ مهامُّ المدير والناظر والمعلّم والمحاسب في آن معاً ،وأنا حديث العهد بشؤون المدارس . وخلاصاتُ النظريّات في التربية وعلم النفس تدور طازجة في رأسي ، وتمرّ كالسحابات الشفّافة بهذه المصادمات الجديدة . أيّ سلاح اتّخذت من دار المعلّمين؟! وأشياء الواقع وأحداثه تعبر بها سحبُ الآراء المتموّجة من غير أن تبدّل أشكالها . وقد كنت في البدء أظنُّني سيّد الميدان ، وها إنّني اليوم بين المختار المتسلطن ، والأستاذ القديم ، أشبه بكرة صغيرة خفيفة يتقاذفها جبّاران مثبّتةٌ أقدامُهما في الأرض .

وهشَّ إليَّ المختارُ في صبيحة اليوم التالي قائلاً بنبرة عالية :

ـ اليوم يبدأ التسجيل ...

ثم بالنبرة نفسها :

ـ عليك أن تكون باكراً في المدرسة ...

واستدار على عقبه وخرج من الباب ، ثم عاد بعد دقائق بركوة القهوة ، فوضعها على الطاولة مع الفنجان الفارغ وقال :

ـ أفضّل أن أكون معك هذا النهار .

فصبّ لي القهوة في الفنجان ، وقلت :

ـ كم تبعد المدرسة من هنا ؟

تجاهل المختار سؤالي ، وأردف وهو يبسط يده بالفنجان :

ـ أنت غريب ، ولا تعرف شيئاً عن مشاكل أهل القرية . ولا شكّ أنّك تجهل أخلاقهم ... عجّل في ارتداء ثيابك ...

وعاد مؤكّداً :

ـ ساكون معك هذا النهار .

★

تحرّكت ورشةُ التسجيل في القاعة الوحيدة التي تتالّف منها المدرسة ، والأهالي يأتون وفوداً ، فيستريح

بعضهم على المقاعد الخشبيّة المخلّعة ، ويحيط بعضهم الآخر بطاولتي الضيّقة ، وقد جلستُ إليها أنفّذ ما يمليه عليّ المختار ، خلال رؤوس الوقوف المحيطين بي ، من الأوامر الصارمة :

ـ سجّل فلان الفلاني ... عمره كذا ... ابن فلان!

ثم أسمع صوت المختار مزغرداً :

ـ مع السلامة ! انتهى ...

ـ الله يديمكْ يا شيخ « عبّاس » .

ويزمجر الشيخ أحياناً ، صائحاً كالأونباشي الغضبان :

ـ يا جماعة رواق ... خلّونا نشتغل !

ثم يردف بصوت معتدل :

ـ متأسّف يا « بو مرعي » ... ابنك لا محلّ له في المدرسة . أنت تعرف أنّه طائش يفسد الصفّ ويعطّل على الآخرين . دماغه لا يحمل علماً . دعه يشتغل معك في مشحرة « جرجس » ... أليس « جرجس » صديقك ونجيّك ؟ الله يديم الوفق بينك وبينه !

ويصيح صوت « بو مرعي » محتدّاً :

ـ أنا إبني قبل الجميع ... شو يا جماعة ؟ الظاهر في إيد وإجر ؟..

وفي نهاية الأمر يوفّق المختار إلى صرف « أبي مرعي » بالتي هي أحسن ، ويخمد صراخه ، فيخرج هذا الأخير مطبطباً ، كما يوفّق في إرضاء مَن أراد إرضاءه ، ونكايةِ من أراد نكايته من الأهالي ، حتى لقد تحوّلت المدرسة إلى دكّان سياسة قرويّة ، واستحلت أنا في هـــذه العمليّة سكرتيراً أميناً لسيّدي المختار .

ولمّا انتهى النهار قلت لصاحب الأمر والنهي :

ـ بلغوا السبعين يا شيخ « عبّاس » !

فرمقني بنظرة مستفسرة وصارمة :

ـ شو يعني ؟

ـ ألعدد كثير ، والمقاعد لا تكفي !

ـ وشو عليه ، يقعد كلّ ولدين على مقعد واحد ... نحن هنا أهل بلا تكليف .

أقفلنا في أصيل ذلك اليوم راجعين ،والشمس تنحدر حمراءَ مستديرةً في الأفق الغربيّ ، وطربوش الشيخ « عبّاس » يميل معها بشرّابته السوداء في خُيَلاء ...وهو أشمّ العرنين ـ كما يقولون ـ منتفخ الأوداج ، متحقّقٌ من النصر في هـــذه الجولات التي جالها خلال النهار بنجاح ...

بدت بيوت « حوش اللوز » تحت أشعّة الشمس البرتقاليّة صفوفاً متدرّجة من التوهُّج ، تعكس نوافذها الزجاجيّة سهامَ النور الطائشة ... وخصلات الضوء تنسلّ من غرفتي ، وتنسحب من النافذة الغربيّة على كدر وكآبة ، وقد ران سكونٌ لم أكن أعرفه ! سكون عميق ، وموجس ، يتداخل مع طلائع الظلمة الزاحفة عليّ من كلّ مكان في الغرفة . وإذ طُرق الباب طرقات خفيفة متوالية خرجت أفتح للقادم المنتظر ، فإذا هو صبيّ في السابعة أو الثامنة ، تلقّاني ضاحكاً بضحكة سمجة بليدة. عرفت فيه ابن المختار ،وتذكّرت وجهه المشوّه باللزوجة، ذلك الذي تلقّاني مع صِبية القرية في اليوم السابق حين

صفق بيديه، وذبّ الذباب عن أنفه، وضحك صائحاً: «هذا هو المعلّم الجديد!»...

قال لي الصبيّ بفجاجة:

ـ أخرج إلى الأستاذ... فهو بانتظارك...

وأشار بيده إلى جهة الدكّان. ثم مضى غير مكترث ينظر ويصرخ بلا مبرّر، فنفر عنه نظري بمقت إلى جهة الدكّان. وما هي إلاّ لحظات حتى خرج الأستاذ «عبّود» يجفّف بمنديله حبّات من العرق ينضح بها جبينه العريض، مع أنّ الطقس لم يكن حارّاً في ذلك المساء التشرينيّ الرطب. وقرأت في وجه الأستاذ أخباراً كئيبة، فاستقبلته باشّاً مرحّباً، وحيويّتُه الناضجة التي شهدتُها أمس قد استحالت إلى قنوط وانكسار. وعندما دخل غرفتي بطيئاً بدا لي ثقيل الهمّة على خلاف يوم أمس. ثم التفت نحو الباب حذراً من أن يكون خلفه أحد. ودنا منّي يقول في خفوت:

ـ أخشى أن أكون أزعجتك بهذه الزيارة الطارئة؟

وندّت عنه ابتسامةٌ ابتلعت أقنعة الرضى التي تذرّع

بها مجاملاً. فسررت بهذا التداعي، منتقماً لكبريائي الجريح أمس، فقلت:

ـ قدومك شرف لي ومسرّة.

وفي ضوء اللمسات الأخيرة من شعاع الشمس الغاربة ظهرت تقاسيم وجه الأستاذ، وقد خُيّل إليّ أنّه شاخ كثيراً بين أمس واليوم، ورأيت أنّ أوشحة البارحة تنهتك عن ذلك الوجه، أو شحة المرح الحيويّ والتفاؤل والارتياح؛ وتبدّلت قسماته، فيما أخذت عيناه تفقدان بصيصهما، وتعبر بهما الهزائمُ والسحابات والألوان المتقلّبة بسرعة.

أوقفني الذهول حيال هذا الوجه الجديد تمثالاً جامداً، بحيث سَرَت إليّ طلائعُ العدوى، وأصبح بمقدار كلٍّ منّا أن يسمع الآخر ويحاوره بغير كلام.

قال وهو يستدير ليجلس على الأريكة:

ـ جئتك لأمر خاصٍّ، أرجو ألاّ يطّلع عليه ثالثٌ بيننا!

وطرق بعصاه طرقات على أرض الغرفة، مؤكّداً

قوله . فأجبته وقد زاد سروري بهذه الأهميّة التي أحاطني بها بغير انتظار :

– ثِق بأنّك تُلقي بسرّك في موضع كَنين .

وعاد يطرق بعصاه ثانية على أرض الغرفة الصلِيبة ، وهو يقول :

– متى ستذهب إلى « بيروت » ؟

قلت حائراً :

– لست أدري يا عمّي الأستاذ « عبّود » .

– ومتى يجيء مفتّش الوزارة إلى هنا ؟

– أنت تعرف أنّ المفتّشين لا يأتون إلاّ كاللصوص !

– يا حول الله !

وازدادت الابتسامة الصفراء اليائسة اتّساعاً على فمه ، وقال متنهّداً :

– أتعرف ما معنى صداقة الأشياء يا بنيّ ؟

وسكت قبل أن يكمل ، وكأنّه يلقي قصيدة داخليّة تعذّب قلبه :

– والتعلّق ، والعادة ، والألفة ؟ وأمور شعريّة

أخرى ؟.. أتفهم ما أقول ؟

نظرت إليه بأسى ، وكان بودّي أن أخفّف عنه . ولكنّ عبارات المجاملة كلّها لا تطفىء هذه الجمرات الكئيبة التي تحرق الرجل الكهل ... فتركته يكمل حديثه من غير أن أقاطعه ، لعلّه ينفّس عن قلبه بالكلام .

– كان اليوم أثقل أيّامي وطأةً وعذاباً . نهضت باكراً ولم أكن أدري ما أفعل . ألشعور بالفراغ يلقي بي في مَتاهات متتابعة، وجيوبٍ عدميّة متداخلة بغير انتهاء . وكيف أعيش أشلّ هكذا ، بعد ثلاثين عاماً من الحيويّة والمؤالفة ؟! غرفة الصفّ والمقاعد ، وأبناء القرية جيلاً بَعد جيل ، والسنديانة التي غرستها ، والحوش الذي مسّدته ورصصته ، وجمعيّة الأدب والخطابة التي أسّستها،ورسائل أهل القرية ومعاريضهم...هذا هو عالمي الذي كنت أحيا فيه ، وفجأة انسلختُ لأعيش في الفراغ الثقيل ... أتفهم ما أقول ؟

– نعم يا عمّي الأستاذ « عبود » !

وآنس من موافقتي تشجيعاً على المضيّ . فحبَك قائلاً :

ـ تَعلمُ ما معنى أن أترك هذا كلّه ، فجأة ، بغير تمهيد ؟

قالها بحسرة ، وعيناه تغرورقان في حمرة مجروحة .

وتمالك جسده على الأريكة متعَباً ، ثم مضى يقول :

ـ لم أكن أظنّ أنّ الإحالة على التقاعد بهذه القسوة حتى اختبرتها . فقد كنت أتمنّى دائماً أن أصل إلى الراحة بعد العناء والعمل . وأخيراً ذقت ما معنى الراحة الدائمة ... أتعلم ماذا يسمّون الموت في طقوس الكنائس ؟ أتعلم ؟.. إنّهم يسمّونه الراحة الأبديّة ... وقد أصابوا ! إن الراحة موت !

« أنتم الشباب لا تعرفون معنى ذلك . وتتهموننا نحن المكتملين بالهذر والجنون عندما نبحث في تشرين الحياة عن عادة أو هواية نقتل بها الشعورَ بالراحة . أمّا أنا فقد فقدت الهوايات والعادات خارج عالمي الأليف ! فماذا أعيش بعد اليوم ؟.. بماذا أعيش ؟ أتفهم ما أقول ؟ »

قلت من غير أن أغيّر لهجتي :

ـ نعم يا عمّي الأستاذ « عبّود » !

ـ أنا اليوم سلطان أُزيح عن عرشه من غير أن يُبعَد عنه . سجني الكبير بيتي والقرية والفضاء والطبيعة كلّها ، والعدم . ولم تبقَ الدنيا كلّها تتّخذ شكل الأشياء الأليفة ، لأنّها بدأت تُملأ بالغرابات البشعة والمفاجآت الكئيبة . وقد حاولت في هذا اليوم المرير أن أتّخذ لي عملاً ، أن أعتني بالزهور ، أن أنكش الأرض ، أن أقرأ في كتاب ، أن أستمع إلى حكايات العجوز ؛ ولكنّي لم أستطع . ذلك كلّه هيّن ولذيذ مع البقاء في دائرة العادة ، أمّا الخروج منها فصعبٌ على من كان مثلي يا بنيّ ... لذلك جئت أسألك متى تهبط إلى « بيروت » ... أو متى يأتي المفتّش ؟..

وأخرج من جيبه رسالة ودفعها إليَّ قائلاً :

ـ هذه رسالة أودّ أن أبعث بها إلى الوزارة أطلب فيها عودتي إلى منصبي بغير مرتّب . لا ، لم يبقَ لي بالمرتّب مطمعٌ يا بنيّ !.. كفاني الله خيراً ، والصبيّ في « اميركا »

في أهنأ حال ، وأرزاقي تكفيني للعيش مع العجوز ، وتقاعدي زيادة خير وبركة .

قلت محاولاً إخراج الحديث عن محوره :

ـ زادك الله خيراً يا عمّ .

ـ قلت لك لا أطمع في المرتّب... ولكنّني لا أريد أن أموت !

جحظت عيناه جحوظاً دلّ على هول المأساة ، وازدرد ريقه من حنجرة جافّة ، ثم نهض وعيناه تترقرقان بماء الحزن . وأحسستُ به عالماً تخلخلت محاورُه ومضى يدور على غير نظامه . وسألني قبل أن يغادر :

ـ ألا تعتقد أنّهم يقبلون طلبي يا بنيّ ؟

فأجبت متأسّفاً :

ـ لست أدري يا عمّي الأستاذ ، ولكن ...

تعلّقت نظراته متشبّثة بالكلمات المنتظَرة على شفتيَّ الحائرتين . وقال بتوسّل :

ـ ماذا ؟.. ألا يقبلون ؟..

ـ لست أدري إذا كانت القوانين تسمح بذلك .

ـ ألقوانين !!. ألقوانين ؟!

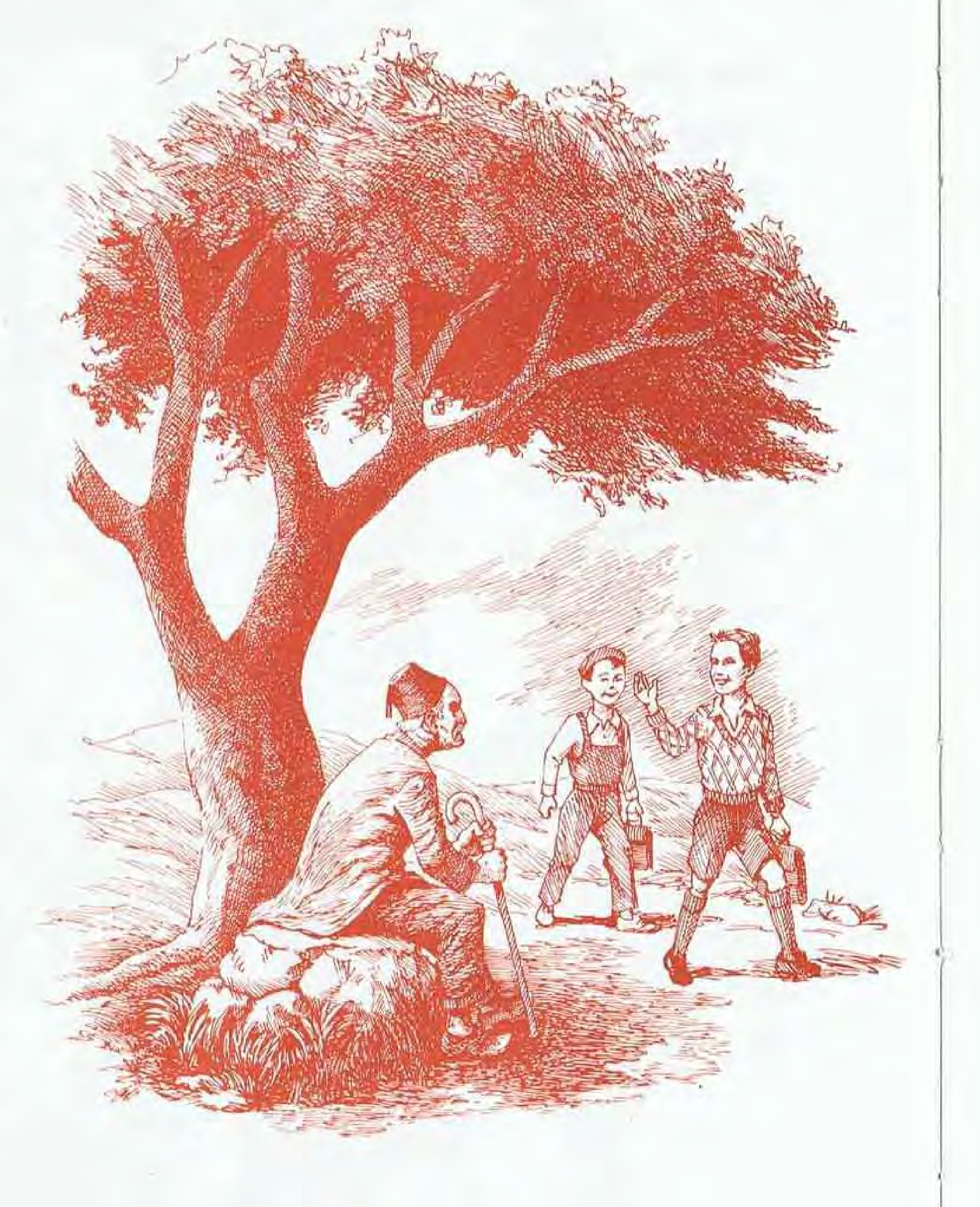
جفَّ حلقه مع العبارة الأخيرة جفافاً يوحي بأنّه بات غير قادر على مزيد من الكلام ... دوَّر جسده وانطلق من الباب ، فلحقت به أريد أن أؤاسيه ، فندّت عنّي عبارة مجروحة بغير اقتناع :

ـ حاول على كلّ حال ...

فالتفت إليَّ ولم يجب ، فعكفت على ذهني أستجمع فيه ما أقوله له حتى أؤاسيه حقّاً وأخفّف عنه ، عل بريقاً من الأمل ينجده ... ولكنّه كان قد ابتعد كثيراً وأوغل في عتمة المساء .

★

في صبيحة اليوم التالي كان الأستاذ « عبود » قد نهض باكراً في ظلّ السنديانة بباحة المدرسة يطقطق بسبّحته على إيقاع غريب ، وكأنّه إيقاع مسيرة من عالم آخر ، بطيءٌ ومخيف ، وقد أدار ظهره للشمس الطالعة ، ووجهه إلى جدار المدرسة يغمر حجارته بنظراته الحالمة .



ومرت به وفودُ التلاميذ تحيّيه ، فلم يجب ، وظل غارقاً في تأمُّلات بعيدة . وبدا لي كالجبل تغادره آخرُ غلالة من غلالات النهار الذهبيّة ، فاستعاض عنها بجسد كالطَّيف الأبيض الجليل ، واكتسى جسماً نورانياً متموِّجاً بأغرب المعاني . كان بودّي أن أقول له شيئاً ، إلاّ أنّني احترمت صمته وجموده وتأمّلاته . فعبرت به صامتاً مستغرباً كيف يمرّ الإنسان بأطوار مدهشة الغرابة ، وكيف يأبى الراحة من كان مثل الأستاذ « عبّود » ، ويرفض الاستسلام لدعة العيش وهدوئه .

مكث طيلة ذلك الصباح قاعداً في ظلّ السنديانة عميقاً ، جامداً ، متأمّلاً ، كتمثال مهيب . ولم يغادرها إلاّ عند الظهيرة . ثم عاد إليها بعد ذلك وظلّ حتى المغيب .

لم تغادرني صورتُه طيلة الليل ، فبتّ حَرجاً به متضايقاً عنه ، خاشعاً في أعماقي لهذا الربط العجيب الذي يربط الإنسان بالأشياء . حتى إذا زحف الفجر ببوارقه الفضيّة على قمم « حوش اللوز » ، وقبل أن تشتعل سقوفها القرميد بوهج الصبح المطلّ ، تعالى الضجيجُ

من بيت الأستاذ . وهرول الصبيّ ابن المختار فغاب دقائق معدودة ، ثم مرق كالسهم من قرب نافذتي ، ومضى يرتمي في حجر أمّه خائفاً مذعوراً وهو يردّد :

ـ أمّي !.. أمّي !.. الأستاذ مات !

الصراخ والطائر الملوّن

ـ يوم قاحل !

قال « الجراد » هذه العبارة ، وقفز لاهثاً نحو الطريق الصاعدة بين الشوك ، صدرُه كعلبة المنفخ ، ويداه ورجلاه أربعة خيوط دقيقة تتحرّك .

كان العشب المبتلّ بالندى ينعصر تحت أحذيتنا الستّة الغليظة ، والربيع ملء فم الوادي ، يتنفّس برائحة الصعتر والسنديان والأعشاب الكثيرة التي لا نعرف أسماءها .

وأراد ثالثنا أن يمازح الرجل القصير القامة ، فقال :

ـ ألجفت أكبر منك يا « جراد » ، فكيف تصيب به الطير ؟

فرك الرجل الصغير عينيه ، وأطبقهما ، ثم فتحهما، في وجه كصفحة القرش ، متحفّزاً للجواب القارص :

ـ ولكنّ السلاح في يد أمثالك يجرح ... ألا تعرف المثل ؟

تقطّعت ضحكاتنا مع اللهاث المتسارع في النسمات الُخضر ، ونحن نرمق الرجل الصغير وقد استحال شبكة من الأعصاب . وأجاب الرجل الثالث :

ـ ليس عن عبث سمّوك « جراداً » .

وأردف الجراد بلا مبالاة :

ـ ألفرّي اليوم قليل .

كانت لِمّته المشتعلة شَيباً تبرق تحت الشمس ،فيبدو مثل أبي بريص بحركته الدائمة . ثم مضى في طريق ضيّقة يستقلُّ بها ، وهو يتمتم كلمات غريبة .

وأرسلت إلى صاحبي نظرة استفهام ، فاجابني ضاحكاً :

ـ لا تأبه له ! هذه عادته دائماً .

مضينا نحمل الشمس على أكتافنا ، فتجري في عروقنا

دماءُ الطبيعة الصبيّة، وتنسكب في آذاننا زقزقة العصافير الهاربة بين الغصون الخضر .

*

قبّة الجرس يبرق ممزّقاً ، والرنين ينبعث منها ويتقطّع على الأفق .

ـ « السلام عليك يا مريم » ...

أطبق الرجل الثالث جفنيه للصلاة ، وغرق في صمت العبادة . تذكّرت الشهر المريميّ ، فشدّ الندم على عنقي كحبل غليظ . أريد أن أقول شيئاً أهرب به من قلبي المفقود . شفتاي يابستان ، وحذائي غارق في الوحل . وصمت الجرس ، وخرست الأطيار ، وأوشكت الشمس أن تنزلق .

ولمّا تفقّدت الرجل كانت الغابة تبتلعه ، وتبتلعني الوحشة .

فجاة علا في الوادي صراخٌ وحشيّ يمزّق الأفق كالنمر الجريح ، فتولاّني الرعبُ ، وهززت كتفَي صديقي :

ـ ما هذا ؟

ـ لا شيء ... الرجل الصغير .

ـ وما به ؟

ـ لا شيء .

ـ وماذا إذن ؟

وابتسم بلا مبالاة :

ـ لا تأبه له . هذه عادته .

كنت متيقّناً من أن شيئاً خطيراً قد حصل ، كما تغضب السماء قبل الطوفان ...

ولمّا طلع « الجراد » من الغابة كان له وجه آخر ، كأنّه مزّق أقنعته جميعاً وألقى بها في الغابة ...

لماذا أحببت ذلك الإنسان الذي تقطن في عينيه الصغيرتين غرابةٌ كبيرة ؟

لم أستطع أن أجيب نفسي . ولم يجبني شيء من ذلك الإنسان الغريب . فقد أسبل يديه النحيلتين على جسمه الصغير ، وسار أمامنا يتأمّل شيئاً غير محدّد . وهمست في أذن صديقي :

ـ أيرانا الآن ؟

ـ لا . فمن عادته أن يصاب بمثل هذه الأعراض . لا تقلق ، سيعود إلى نفسه بعد حين .

تدافعت أفواجُ الفرّي بعد ذلك اليوم ، وانتشر الصيّادون في سهول القمح المقترب من النضج . ولكنّ « الجراد » لم يظهر ، برغم تفقّدي له وإلحاحي في السؤال عنه .

وحدّثني صديقي عن أطوار « الجراد » ، وأنّه سُمّي كذلك لأنّه جاء القرية مع مجيء الجراد ، فأقام فيها وأهلها لا يعرفون عن أصله شيئاً . فعمل أجيراً ، ثم مضى يعمل في معصرة الزيتون ، حتى جمع ثمن بيت صغير اشتراه من أحد المهاجرين فأقام فيه ، وصار يعيش من صنع سلال القصب . ومن هنا أخذت حياته تزداد غموضاً مع العزلة عن الناس ، فتغلّفت حياته بالأساطير .

كان من شأن هذه الأخبار أن تزيد فضولي . فقصدت الرجل الصغير إلى بيته أريد أن استعلمه سرّ انزوائه عنّا بعد تلك الرحلة ، وسبب صراخه المفاجىء في الغابة .

كان أثاث بيته نظيفاً على خلاف ما كنت أتوقّع . واستقبلني ببرودة لا تخلو من المحبّة . وكان منزوياً كئيباً، مليء الوجـه بالشوق إلى شيء مجهـول . وقلت « للجراد » :

ـ لماذا لم تخرج من بيتك بعد تلك الرحلة إلى الصيد ؟

وقفزت عينـاه من خمولهما الأوّل ، وأجـاب مستغرباً :

ـ من قال لك إنّي لم أخرج من البيت ؟

ـ كنت أسأل عنك فلا أجدك .

أخذ إبريق الفخّار وقدّمه لي :

ـ خذ واشرب ! هذا مـاء مسحَّر . إنّه طيّب لذيـذ .

وطرحت عليه عدداً من الأسئلة لم يجب عنها ، بل ظلّ سادراً ينظر من خَصاص النافذة الوحيدة في بيته إلى شيء في الخارج . كان يبدو مترقّباً لنقطة ما في الأفق . فلمّا صارت الشمس في محاذاة النافذة نهض مسرعاً . وقال

لي بارتباك :

ـ أعتذر منك . لا أستطيع أن أستقبلك بعد الآن .

وخرجت من البيت فخرج معي . وقـال لي ونحن نهبط الطريق :

ـ أرجو أن أحظى به اليوم . لديّ شعور قويّ بذلك .

ـ تحظى به ؟

ـ نعم .

واستغرق في صمت مضطرب .

لم أفهم قصد « الجراد » من هذه العبارات . إلاّ أنّـه استطرد قائلاً قبل أن نفترق عند أوّل الغابة :

ـ هل سبق لك أن أحببت ؟

قلت :

ـ نعم . سبق لي ذلك مراراً .

قال :

ـ ولكنّـك بالتأكيد لم تحبّ مثلي . فهل سمعت برجل أحبّ طيراً من الطيور وامتلأ قلبه بالكآبة ؟

ظننته أصيب بعارض مفاجىء شبيه بما أصابه أثناء كان معنا في الغابة . وكانت أصداء خطواتنا تفصل بيننا ، حتى تغلغل في الغابة . واختفى بين الأشجار .

★

ـ إذا كانت الشمس أمنيتك فلا تقبض عليها لئلا تستحيل رماداً !

كانت هذه أولى الكلمات التي قالها « الجراد » عندما أفاق من غيبوبته . وجلسنا حوله صامتين . كنّا ثلاثة من رفقاء الصيد ، وقد سمعنا صراخاً شبيهاً بصراخ « الجراد » في المرّة الأولى ، فهرعنا إلى مصدر الصوت ، فرأينا « الجراد » مغمياً عليه . وكان بيته قريباً من الغابة فحملناه إليه . واستدارت عيناه ، وتنقّلت بيننا نظراته :

ـ أريد ماءً . أعطوني الإبريق .

ونهض رفيقي ليأتيه بإبريق الفخّار . وقام الآخر

يعدّ له فنجاناً من الخطميّة . وأشار « الجراد » إليّ أن أقترب منه ، ثم همس في أذني بمرارة :

ـ أتدري أنّي حظيت به ؟

ـ مَن ؟

ـ ألطائر الملوّن .

وظننت هذه المرّة أنه يهذي أيضاً . فتركته خوفاً من أن أثقل عليه . وحضر فنجان الخطميّة فرشف منه رشفات معدودة ووضعه جانباً . ونظرت إلى صديقي بإشفاق ، فقال هذا مطمْئناً :

ـ لا تخف ! هذه عادته . إنّه يصاب بالنقطة فيغمى عليه ، ثم يعود إلى ذاته بعد حين .

وتسرّبت الكلمات إلى « الجراد » ، فنهض عن المقعد الخشبيّ وصرخ فينا :

ـ لا ! ليس هذا صحيحاً !

وعاد يجلس على المقعد وصدره مضطرب بلهاثه المتسارع :

ـ كنت أقع في حال النقطة ... هذا صحيح ... أمّا



الآن فالأمر مختلف .

« لقد شغلت بهذا الطائر الملوّن الذي رأيته أوّل مرّة فجاة على غصن زيتون . كان طائراً عجيباً ، في أجنحته ألوان ما رأيت مثلها في أيّ شيء . وكان له صوت يشبه النداء الرفيق الحنون . فلمّا رأيته أصابني مزيج من الخوف والفرح . فهرولت إليه صارخاً بذلك الصوت الذي سمعتموه ، فاجفل الطائر ، وخفق بجناحيه ، وشال عن الغصن فطار في اتّجاه الشمس .

« وأحسست ذلك اليوم أنّ لي أملاً قد هرب من بين يدي . لا تضحكوا ، فأنا أقرأ خلف أقنعة وجوهكم علائم الهزء . إنّ شيئاً في العالم لا يمكن أن يوازي ذلك الشعور الجانيّ الذي شدّني بذلك الطائر الفريد . وأمضيت أيّامي التالية لا همّ لي إلاّ العثور على ذلك الطائر مرّة أخرى . فكنت ، كلّما دنت الشمس من النقطة التي كانت فيها يوم لقيته ، أخرج من البيت وبي أمل لقائه . لقد أصبح ذلك الطائر وسواسي الوحيد ... حتى لقيته اليوم في الموضع نفسه » .

كانت كلماته الأخيرة قد اختلطت بمرارة عجيبة . فهتف الجميع :

ـ ألحمد لله على تحقيق أمنيّتك .

وتنفّس « الجراد » كالفأر المريض . وقال لنا خافقَ الصدر :

ـ ليتني لم أعثر عليه !

وتشابكت نظراتنا استغراباً لهذا الجواب . وأكمل « الجراد » بلحن حزين :

ـ لو لم ألقَ الطائر الملوّن لظلّ ، حتى الآن، بالنسبة إليّ ، أملاً لذيذاً ، يشغل آخر أيّامي ، ويملأ وحشتي بالشغف والترقّب . أمّا الآن فقد لقيته ... واستطعت أن أقبض عليه وهو يغطّ فوق الغصن . فلمّا وضعت عليه يدي خفق بجناحيه خفقة سريعة ، ثم ألوى عنقه باستسلام .

وسرَت بيننا ابتساماتٌ تسخر من هذا الاهتمام الساذج ، فلفّنا الرجل بنظرة لوم شديد . ثم مضى يبكي كالاطفال :

ـ لقد أصبح ذلك الطائر الغريب شيئاً آخر منذ أن قبضت عليه ، أصبح شيئاً أليفاً ... لم تبقَ له تلك الغرابةُ وذلك السحر . لقد أرخيت قبضتي عنه فلم يقاوم ولم يهرب ، بل سقط على الأرض وتنفّس ، ثم مرّغ عنقه ومنقاره على حذائي . وتحوّل الشغف به إلى شفقة عليه ... أنا لم أعرف الشفقة في حياتي ، ولا قبلت من أحد أن يشفق عليّ ... فلماذا أبيحُ لنفسي أن أشفق على الآخرين؟ ساعتئذٍ تذكّرت حكمة قديمة كانت جدّتي الغجريّة الراقصة تردّدها على مسمعي قبل رحيلنا إلى « لبنان »: « إن كانت الشمس أمنيّتك فلا تقبض عليها لئلاّ تستحيل رماداً ... »

قال « الجراد » هذه الكلمات ، ثم نظر إلينا ونحن ماخوذون بما يقصّ علينا . ثم انفجر بالضحك ، وطلب منّا أن نجلس حواليه . ففعلنا . وقام من مجلسه يحدّثنا بحديث الصيد ، ويسال عن أفواج الفرّي ، وينادي كلبه الجالس عند الباب ، وكأنّ شيئاً لم يكن ... ثم صفق بيديه ، وأشار إلى رفيقنا الجالس بقربه أن يعطيه

الإبريق . فشرب ، وتلمّظت شفتــاه ، ثم مسح الماء عن ذقنه وعاد يقول :

ـ إذا كانت الشمس أمنيّتك فلا تقبض عليها لئلاّ تستحيل رماداً .

وعلتْ في الجوّ قهقهةٌ ملأت الدار .

بعدما تساقط الثلج !

لم يكن شيء ينذر بأنّ الثلج سيسقط ، مع أنّ النسيم البارد كان يأتي مع النهر ، ويلسع أقدامنا الصغيرة ، ويخرق أثوابنا ، ونحن في شغل عن أصوات الباعة البعيدة في الأحياء ، بهدير النهر وجعجعته المتواصلة ، تنسلُّ بينهما ، بين حين وآخر ، صيحاتُنا الضائعة في الفضاء .

ولمّا قدمت المرأة لم نكن ننتظر مثل هذه المغامرة الشائقة . فجهد ما كنّا نطمح إليه عندما نغرس أقدامنا في الرمل الرطب أن نلهو فيــه بالبحث عن « الزلط » و « الصفد » وسائر أنواع الحصى الثمينة الملوّنة ، نلهو بها ، ونصنع الحليّ ، ونعقد العقود لأخواتنا وأترابهنّ .

غير أن الصورة كانت رائعة . والذي أذهلنا من المرأة

وقوفها أمامنا فجأة، وبسرعة. فقد أوقفت كلّ حركة من حولها. ولا نزال حتى الآن نتساءل عن النهر هل تجمّد ماؤه، وخفت خريره، وتوقّف اندفاع سيله مع تلك الوقفة التي وقفتها المرأة بإزائنا، فحجبت عنّا رؤية الضفّة الأخرى؟

والصورة تقدم إلينا الآن مع الذكريات العتيقة، مبهوتةَ الجوانب، غامضة التفاصيل، وكأنّها تفاصيل رسوم تتحرّك فوق نسيج من صوف أخضر. فقد كان العشب يومذاك يملأ الضفّتين.

كان رأسها مجلّلاً بمنديل حرير ممزّق، بقيت على أطرافه خرزاتٌ متفرّقة من زينة سالفة. وأمّا الوجه ففي قسماته لقاءٌ بين أخاديد الهرم ورونق الشباب: في تجاعيده الكثيرة تشعّ حيويّة العافية وكأنّها طيّات لطاقات الحياة. وقد برزت عيناها، وتفرّقت أسنانها عن ضحكة غريبة، وانسدل فوق جسمها البدين رداءٌ يصل إلى الأرض ويغطّي القدمين، ويبدو أنّه من أزياء قبائل النوَر التي من عادتها أن تمرّ بساحل الشمال في فصل الشتاء، ثم تنزح إلى أعالي

الجبال في الصيف.

وصاح «مروان» بالرفقاء، مشيراً إلى موضع المرأة:

ـ أنظروا، أنظروا! إنّها هنا!

توقّفت المرأة عن أيّة حركة، ولم تَحِر جواباً، فكأنّها أرادت أن تحدث الدهشة التي تجلب إليها الأنظار. وجمدت الأنظار فيها، وخيّم الصمت.

رفعت المرأة إحدى رجليها وأسندتها إلى صخرة ناتئة بين الأعشاب، فظهر طرف سراويلها الطويل الملوّن بألوان زاهية كثيرة، وهو معقود إلى ما فوق القدم حول الكاحل. ثم أدخلت يدها في جيبها وخضّت ما فيها، فصدر صوتٌ من الخشخشة الجافّة. وأخرجت في يدها قطعاً مستديرة من سدادات قناني «الكازوزة» وبسطتها أمامنا قائلة:

ـ أنظروا يا أولادي هذه النقود. لقد منّ بها عليَّ بعضُ المحسنين!

وأرسلت من فمها ضحكةً مسحوبة على مدى ضفّتي النهر، ثم تابعت بلحن حزين:



- كنت أتوسّل المارّة في المدينة أن يحسنوا إليَّ بشيء من المال أشتري به دواء لابني المريض ، وأعود إلى القرية حيث أقيم قبل أن يسقط الظلام. وقد أحسنوا إليّ بهذه النقود ، فتعالوا وانظروا هل تكفيني ؟

واستدارت على ذاتها وكأنّها تريد أن تبكي . فملكتنا الحيرة جميعاً ، إلاّ « مروان » الذي كان أكبرنا سنّاً ، فهتف بنا كالقائد الصغير :

- إنتبهوا ! هذه حيلة !

وتحلّقنا حوله نستفسره ونعطيه أولويّة الرأي ، ونعترف له بالتقدّم علينا في باب حلّ الألغاز . فقال :

- إسمعوا ! لقد جاءت هذه المرأة الشرّيرة تستدرّ عطفنا عليها .

وقفز واحد منّا صائحاً :

- ولكنّها لم تفعل ذلك ، بل جاءت كعاصفة من الخوف !

فأسكته الرفقاء الباقون ، ونظروا إلى « مروان » يشجّعونه على المضيّ في شرح رأيه وعرض خطّته. فقال:

ـ جاءت بهـــذا المظهر حتى توهمنا بأنّها خُدعت بسدادات زجاجات « الكازوزة » ، وأنّها ظنّتها نقوداً . وليس هذا في الحقيقـــة معقولاً . إنّ امرأة في سنّها لا تُخدع مثل هذا الخداع .

وارتفع أحد الأصوات :

ـ ولماذا فعلت ذلك ؟

فردّ « مروان » بثقة أخذت تزداد :

ـ لأنّها تريد منّا أن نشفق عليها ونمنحها ما نملك من النقود .

كانت خشخشة السدادات لا تزال تصدر عن المرأة كصوت أبحّ ، وهي تقفز قربنا ، كأنّها في انتظار نهاية المداولة بين أركان الحرب الصغار . ومدّت يدها مرّة أخرى بجمع من تلك السدادات المعدنيّة التي بهت التلوين عن صفحتها وتباعدت بُقعه ، فظهرت كصور مصغّرة عن وجهها المجعّد الناضر في آن معاً ؛ وقال القائـــد الصغير :

ـ لديّ خطّة أقترحها على الرفقاء !

وتعاكست الأنظـــار وهي تتّجه إليه بسرعة . فتابع :

ـ علينا أن نجابه المكر بالمكر . فدعوني أتولّى الأمر وأنفّذ الحيلة ، على أن تبقوا صامتين تردّدون ما أقوله ، أو تشيرون بالموافقة من غير أدنى اعتراض !

ثم دنا منها بخطوات جريئة وقال :

ـ هذه ليست نقوداً كما تزعمين ! ولكنّها قطع من الجواهر الثمينة والتحف النفيسة ذات قيمة مرتفعـــة جدّاً . وقد فقدها أحـــد كبار الأثرياء في المدينة . لقد سرقتها منه بلا شكّ ، فالويل لك إذا رآها رجال الشرطة معك ، فمصيرك عندئذ السجن المؤبّـد .

وتراجع القائد الصغير خطوتين ، وهتفنا نحن من ورائه بالموافقة على مـــا يقول . فذعرت المرأة أيّما ذعر وجحظت عيناها من وجهها بين الاستغراب والطمع . ثم أخفت السدادات في جيبها ، وكتمت عليها كتماناً شديداً . وصاحت :

ـ لا ! إنّهـــا نقود ! مجرّد نقود ! أقسم بالله أنّها نقود . وقد منّ عليّ السابلةُ بها إحساناً لوجه الله .

فقال القائد الصغير :

ـ إن كنت صادقة في ما تزعمين فهاتيها إلينا نمنحك ما يكفي ثمن الدواء وأجرة السيّارة للعودة إلى القرية .

وصحنا جميعاً ، وقد تبدّد الخوف نهائيّاً من وجوهنا :

ـ هاتيها ، هاتيها ، هاتيها ..!

فقفزت المرأة إلى الوراء ، وزادت حرصاً على السدادات الصّدئة ، وأخذت تشدّ عليها في جيبها حتى كاد رداؤها يتمزّق . وقالت :

ـ لا أريد أن أمنحكم إيّاها . إنّكم صِبية أشرار !

وحاولت أن تفرّ هاربة منّا ، فلحقنا بها بالعصيّ الصغيرة وقضبان الليمون اليابسة . ولمّا ابتعدت عنّا رشقناها بالحجارة حتى توارت بعيداً بين الأشجار وهي تهرول مذعورة . وعدنا مساء ذلك اليوم إلى بيوتنا متهلّلين ، وقد بحّت أصواتنا الصغيرة من كثرة الصياح .

★

لم نكن نحن نعرف الثلج في المدينة . فمنذ ولدنا إلى ذلك اليوم لم يكن الثلج قد سقط على الساحل . ولكنّ البرد كان قارساً مساء ذلك اليوم أكثر من العادة ، ولم تستطع أفرشتنا أن تطرد قَرْصَ البرد عن عظامنا بالرغم من أغطيتها الكثيفة . ولمّا استيقظنا في اليوم التالي لم نصدّق أعيننا . فقد هتفت أمّي بنا صائحة :

ـ تعالوا انظروا الثلج !

ومددنا أنظارنا من خلف البخار اللاصق بزجاج النوافذ ، ثم مسحنا الغشاوة بأيدينا الصغيرة ، فتكشّفت لنا المدينةُ وكأنّ بساطاً أبيض كبيراً قد بُسط فوق بيوتها جميعاً . وتسرّب البياض إلى سطح الكنيسة الذي كان ينبت فيه عشب أسود ، فانجلى عن بياض غريب . والبياض فوق القبّة ، والبياض فوق برج الجرس ، والبياض في الشارع حيث بدأت الحركة بشيء من البطء .

كان منظر الثلج يلهينا عن أيّ شيء آخر ، وقد هفت نفوسنا إلى هذا المشهد الفريد في حياتنا . وارتدينا من كلٍّ ثوب اثنين : الجوارب ، وقمصان الصوف ،

والقمصان الداخليّة ، وارتدينا سراويلاتنا الطويلة فوق سراويلات النوم . وذهبنا الى المدارس صبيحة ذلك اليوم محمّلين بالثياب الثقيلة .

لم تهدأ سورة الدهشة بالمنظر الجديد إلاّ في المساء ، عندما تحلّقنا حول النار نتأفّف من البرد ونتلاحظ بين الحين والحين تحت رقابة والدنا الجالس على كرسيّه ، وهو يعرض أحداث اليوم في جريدته المسائيّة المفضّلة . وإذ به يتوقّف فجأة عن القراءة ليصيح :

- إسمعوا هذا الحدث الفظيع ! لقد عثر رجال الأمن على امرأة في العقد السادس من العمر كانت ملقاة في الثلج بضاحية المدينة. وقد كانت ترتدي ثوباً طويلاً مزركشاً ، وهي تقبض في يديها على مجموعة صدئة من سدادات زجاجات « الكازوزة » . فتمّ نقلها بسرعة الى المستشفى وهي تعالج أنفاسها الأخيرة . تبيّن أنّ المرأة كانت مصابة بمرض عقليّ ، وفرّت من أحد مستشفيات الأمراض العصبيّة .

واعترتني موجةٌ محرقة من القلق والتساؤل ،

فقلت لوالدي :

- هل يعني هذا أن المرأة ماتت ؟

فطيّب خاطري ضاحكاً :

- يُستدلّ من هذا الكلام أنّها لم تكن قد ماتت بعد ، لدى كتابته .

- وهل يعني أنها ماتت بعد ذلك ؟

- لستُ أدري .

- وهل تنبئنا جرائد الغد عن مصير هذه المرأة المسكينة ؟

وصرفني والدي عن هذا الإلحاف في السؤال . وقادني إلى غرفة النوم بيده وهو يقول لي بجزم :

- إرتدِ ثياب النوم واندسّ في سريرك ، ودع عنك هذه الأسئلة التي لا جدوى منها .

وأطعت أوامر والدي واندسست في الفراش . ولم أنم طيلة ذلك الليل الطويل .

بقيت - أنا ورفقائي - نتحاشى ، بعد تلك الحادثة ، أن نذهب إلى النهر . ظلّت تلاحقنا صورة تلك

المرأة المسكينة التي لم نرأف بها . وظللنا معتقدين فترة طويلة أنّنا جنينا عليها . ولم نكن نذكر الأمر بيننا إلاّ متهامسين تهرّباً من صوت الضمير الذي لم نعرف تقريعاً وتعنيفاً أقوى من تقريعه وتعنيفه في ذلك الحين ...

وظللنا هكذا ... إلى أن كانت « زمرتنا » قد أجمعت أمرها ومضينا نجتاز الشارع . وإذا بنا نرى المرأة نفسها بين السابلة . فهتف « مروان » :

ـ أنظروا ! إنّها هنا .

وأسرعنا إليها جميعاً، وألقينا عليها التحيّة . فلم تردّ . وسألناها إلى أين هي متّجهة ، فلم تحر جواباً . وأمسكناها بيدها نهزّها ، فلم تتغيّر نظراتها ، ولكن برق فيها شيء . فأخذ كلّ منّا ماكان يحمله في جيبه من نقود ، ودسسنا ما جمعناه في يد المرأة ، فلم تشكرنا ولم تقل شيئاً، بل نظرت إلينا نظرة فيها اختصار لمعاني الامتنان ، وتخلّت عن جمودها . وسارت في الشارع حتى غابت بين السابلة .

وما زلنا، بعد ذلك، نلقاها في الشارع بين الحين والحين. ولكنّنا لم نسمع لها صوتاً ، ولا لمحنا في نظراتها من ذلك البريق إلاّ أطيافاً ...

الخطوات

الأقدام تطرق بكثرة خلف باب الدكّان ... لم يبق باستطاعته أن يتبيّن عددها : أربعة ... ستّة ... عشرة رجال ... أكثر ... وأكثر . ألقرية كلّها تزحف . أولاد صغار ، وأمّهات ، ورجال ، وشيوخ . ألزحف الفرح يتدفّق كالدماء في عروق جسم مهتاج . غداً تتحقّق الأعجوبة المنتظَرة منذ سنوات ، ويرتوي حلق الأرض ، وتزهر مواعيد سنوات القحط الماضية .

فكّر المعلّم «سليمان» بالآخرين الذين يفرحون وحدهم اليوم . والآخرون كانوا جزءاً منه ، وهو عندهم محطّ الأنظار . خيالات العابرين تتحرّك على جدار الدكّان ، ثم تمضي من غير كلام ، كأنّهم لم يتوقّفوا عند باب دكّانه

باحترام طيلة ثلاثين عاماً ، ليلقوا تحيّة الصباح . والنساء يعبرن مسرعات ، غير مكترثات ، كأنّ الخاطبات لم يعرضن عليه خدماتهنّ في زمن العزّ الغابر ...

الله ! الله ! المال ، والنساء ، وشرف الصنعة : مثلّث الحياة الدنيا ، أتلف العمر في طرادها ، وها هي اليوم بُلغة العيش تستكثر نفسها عليه .

ولم تندّ عنه التفاتةُ نحو الشارع . الأقدام الكثيرة تطرق وتطرق ، لا تتوقّف ، وأهازيج مكبوتة وبعيدة تتناهى إلى مسمعه . وقد شارك القرية في الزمن الغابر أيّامَ البؤس والهناء ، وكان ربيب الأفراح وشريك الملمّات . غير أنّ أهازيج الفرح توقّع اليوم وثيقة الانفصال بينه وبين الآخرين .

والخَدَر يتابع زحفه على ساقه المتجمّدة ، فتلتصق أكثر فأكثر بالكرسيّ المخلّع خلف طاولة الصنعة . مدينته الصغيرة تتثاءب وتزفر بأنفاسها الأخيرة . وجدران « الشحتار » الأسود ، الحبلى بالبراميل المعلّقة وربطات الحنفيّات ، تلفّه من الجهات الثلاث بتوسُّل ورجاء ،

فيغمض عينيه ... ويتذكّر : ثلاثون ... واحد وثلاثون ... بل ثلاثون عاماً !!.. ماذا جنيت من هذا العمر الأسود كلّه !؟

بات لا يُجديه حتى أن يعدّ ... عمره كلّه أرقام مفترَضة وقف على عتبتها المكننة ، ثم أوقعته في الخواء والفراغ . وسنوه وأيّامه ممزّقة على العتبة المحفّرة ، أو مصلوبة على خشبات الباب النّخِرة .

*

ـ رأيت اليوم حلماً مزعجاً .

وردّ أبوه بقسوة :

ـ دعك من الأحلام المزعجة ، وقُمْ !

ـ سأذهب إلى عرّافة القرية لتقرأ لي البخت .

ـ لا شكّ أن الخرَف بدأ يدبُّ فيك ... الله يمحق الأولاد !

ـ أبي ! دعني أستشير العرّافة في هذا الحلم الغريب .

ـ وماذا رأيت في منامك يا تيس ؟ ما كنت أظنّ أنّ

هذا الرأس يصلح للأحلام . ألحقيقة أنّه ياتي على بالي أن أضحك عندما أفترض أنّك تحلم .

ـ أبي ! رأيت المياه تطلع من الأرض بغزارة . ورأيت بابور الكاز يطفو على المياه الكثيرة النابعة من تراب الأرض ، ثم تنطفىء لهبته ، ثم تعوم البراميل كلّها ، وتعلو المياه أكثر فأكثر حتى تبلغ الرقبة ... وأختنق ، ثم ... لا أذكر شيئاً .

ـ ألصنعة ذهبٌ أبيض ! قمْ !.. إنهض ! واخلع عنك رداء الأوهام .

★

راح يفكّر : « أبي ! أبي ! أين عظامك المهترئة الآن ؟ أنت صيّرتني سنكريّاً يائساً ، وأطمعتني بالثراء والرفاه من صنع براميل المياه ، وقلت : هذه صناعة لا تكسد لأنّ الناس كلّهم سيحتاجون براميل الماء للاغتسال » .

ووجه أبيه لم تطمسه السنوات . إنّه يشرق خلال

غبار الزمن السالف ، بقسماته القاسية ، وأنفه الكبير الذي نما تحته شاربٌ كالغابة . وكأنّ الوالد يشدّ يد ابنه بعنف: الصنعة ذهب أبيض وسرٌّ مخبّأ ... النار ، والقصدير ، والتنك الأبيض ، والتوتياء ، وحنفيّات البراميل الذهبيّة . والعمر يعدو بسنواته كجياد مسرعة في حلم عميق تركض وتركض ولا تبرح مكانها . « أبي ! أنت صيّرتني بائساً ! ولكنْ من يردُّ الجواب ؟ كأنّك لم تدرك أنّ فلسفة زمانك لم يبقَ لها في عجائب هذا الزمان حسابٌ . وقد كنت تدّعي أنّك لا تخطىء ! »

ألبابور في الزاوية ينحب بصوته وقد شحبت لهبته ومضت تعتلّ . ومكواة لحام القصدير ملقاة جانباً ، خاملة بتذلّة . وآخر برميل لم يتمّ صنعه بعد . ولماذا يتمّه ؟ ولمن ؟ والناس يبتهجون بقدوم الماء وامتداد القساطل إلى البيوت !

وأطل صبيٌّ منفوش الشعر وهائج كالبرغوث :

ـ عمّي « سليمان » ! لماذا لاتغلق دكّانك وتسير معنا ؟.. هل عرفت أن الماء سيتدفّق غداً ؟..

ويزغرد الصبيّ : « ديروا المي ... ديروا المي ! » . ثم ينتقل اللحن كالعدوى إلى الفتية ، فتدور أفواههم الصغيرة بكلمات الأغنية ، ثم يندفعون في مسيرة بشكل تظاهرة : « ديروا المي ... ديروا المي ! » وينضمّ إلى المتظاهرين أناسٌ عديدون ، فتتضخّم الكتلة البشريّة الفرحة .

الماء ! الماء ! غداً يتدفّق الماء في القرية ، وتطرح النسوة الدّلاء بعيداً ، وتُسَدّ فوهات الآبار ، لتمتدّ القساطل في البيوت يجري فيها العذب الرقراق .

الخطوات تزداد بكثرة ... وتتدفّق ... وتطغى بإيقاعها على أفكاره المتشرّدة .

وعبرَ وفدُ المختار في حفل مهيب ، قرب باب الدكّان ، ولكنّ أحداً من الرهط الجليل لم يلتفت إلى العمّ « سليمان » القابع خلف صحائف التنك . « ثلاثون عاماً أمضيتَها في المهنة ، لم تُغنِك عن شيء . وأنت اليوم المعذَّبُ الوحيد . لم تجمع قرشاً على قرش إلاّ ذهبتْ به صروفُ الأيّام . وجهادك كلّه لم يستطع أن يقيت إلاّ

فماً واحداً هو فمك . أين الذهب الأبيض ، أين ؟ إنهض عن كرسيّك المخلّع وانطلق مع الآخرين . وغداً تتدفّق المياه ، ويظلّ دكّانك أشبه بالمتحف الذي يذكّر الأهلين بسنوات ماضية . ويشيرون إليك قائلين : هنا كنّا نصنع براميل الاغتسال قبل مدّ الماء . وتظلّ أنت تمثال المتحف الوحيد . قم ، تحرّك !.. سواء متّ غداً أو بعد غد من كساد الصنعة ، فأنت اليوم حيّ . وغداً لن يُلقي إليك أحدٌ بالاً . الغول الذي خفته سنواتٍ طويلة ، وعلّلته بعرق الجبين وشقّ النفس ، لن يتطلّع إليك وهو يمزّق جسدك بأنيابه البرّاقة » .

وأحسّ بشوق مفاجىء إلى « أمّ فتحي » ، العرّافة الوحيدة في تلك الأرجاء . وتذكّر الحلم الذي يخبط العظام . ولكن هل تفسّر الأحلام بعد ثلاثين عاماً ؟

قدماه تنقلانه ببطء ثقيل وسط الشارع الأعمى ، كأنّه آلة مخلخلة المحاور تمشي بين الزحام : « أين أمّ فتحي يا ولد ؟ ... أمّ فتحي ماتت قبل أبيك ...

وهي أيضاً لم تغنِها صناعتُها عن الموت . أتراها عرفت أجلها أين ينتهي ؟ فكيف تحمّلت بعد ذلـــك الحياةَ المعدودة السنوات ؟ ؟ »

ومضى يضحك من نفسه ... كيف يقصد بيت « أمّ فتحي » وهي في عداد الأموات ؟ ولكنّـه يشعر بحاجة إلى من يحلّ له رموز الحلم . وغداً يجري الماء في القرية ...

عرَّج على صديقه القـــديم « أبي الهمَّات » ، سيّد شبَّان القرية في الزمن الذهبيّ السالف. فتلقّاه بالبِشر ، ولم يكن ينتظر زيارته .

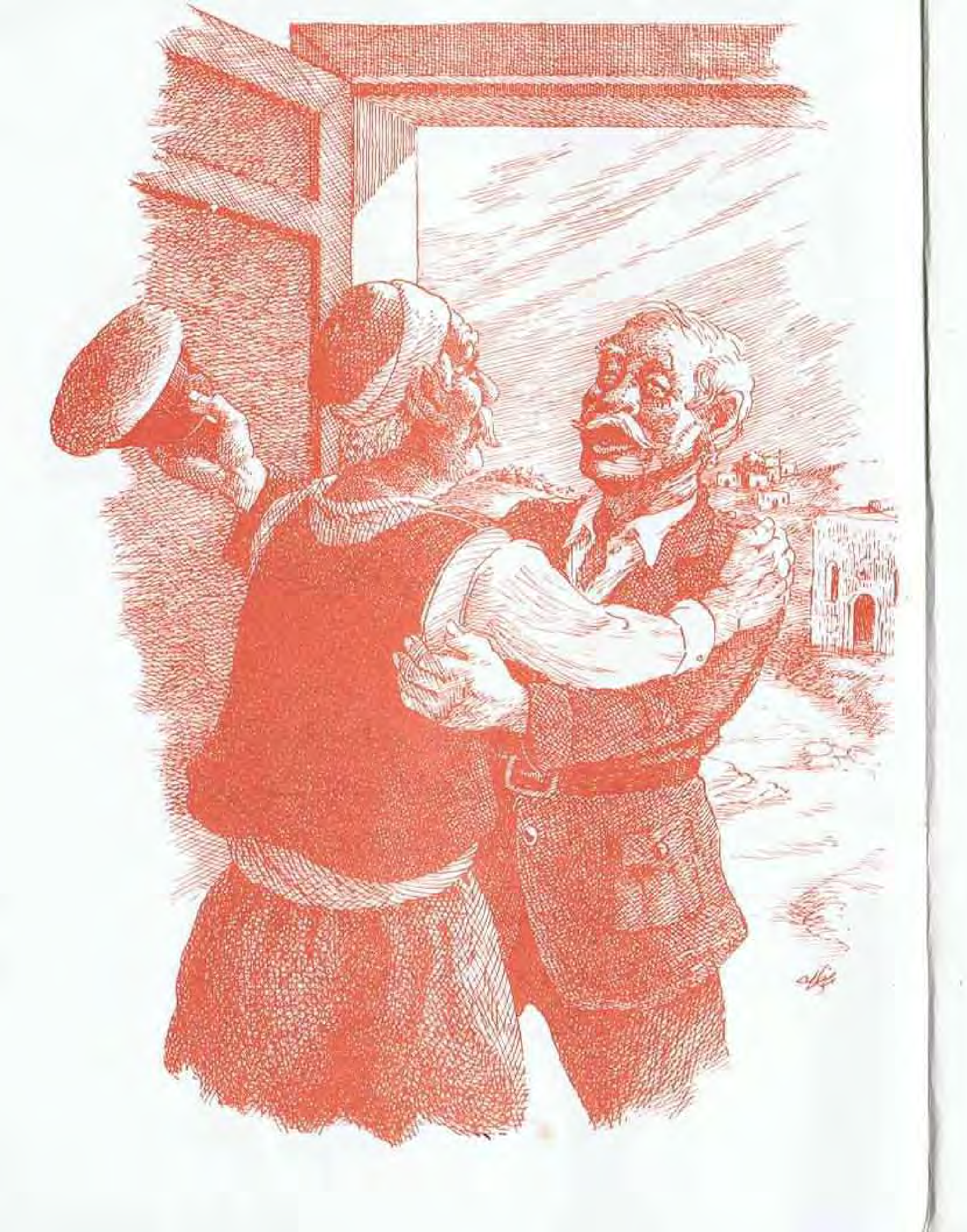
- أراك اليوم مكدَّر الخاطر يا معلّم « سليمان » .
- ألقرف !.. القرف يا « أبا الهمَّات » .
- يقطع دين القرف ... وماذا بقي لنا بعد الشباب ؟
- ولكنّك أنت تزوّجت وفرحت بالعرسان .
- كلّها لعبة يا معلّم « سليمان » . ألكون يعمر ونحن تالفون .

- يقولون إن الماء سيتدفّق غداً ويجري في قساطل البيوت .

- زمن عجائب !..
- وقد مضى الجميع للاحتفال في ساحة القرية .
- أتركهم ينبسطون .

أقفل بعد زيارته القصيرة راجعاً ، ولم يَبُح بالحلم القديم لصديق أيّام الشباب . وزمَّ شفتيه من الخجل والضّيق ، إلاّ أنّ النسمات العليلة بدأت تبرّد صدره، وحديث الودّ خفّف من همومه . غير أنّ الخوف لا يزال يرجف عظامه ، والخدر يزداد تغلغلاً في ساقه .

وعبر القدّوميّة الضيّقة لا يؤنسه شيءٌ إلاّ وساوس نفسه ، وأهاجيسها . والغروب مشرف على القرية ، ونباح الكلاب يتردّد بين البيوت . ومرّ بغابة الزيتون الصغيرة فعاودته أضغاث أحلام : ماذا لو بقيت هذه الأرض لأبيه ولم ينفقها على تفتيل شاربيه وعلى شراء العزّ الباطل؟ ماذا لو ترك له ما يقيله من العثرات ؟ « الصنعة ذهب أبيض وسرٌّ مخبّأ » ... آمنّا وصدّقنا يا « أبا سليمان » ، ولكنّ الزمان غيّر ... إستظلّ شجرة عتيقة واستراح . الخدر



لا يزال في ازدياد . ثم مضى يسرّح نظره في غابة الزيتون الصغيرة ، فحزّ كالسكّين في قلبه أن يرى غصونها تاعسة ذابلة كأنّها تسترحم. وتذكّر نبأ سمعه مؤخّراً فاقلقه : صاحب الغابة سيقطع شجرات الزيتون ويقتلعها ليزرع غِراس ليمون تصحّ مع المياه الجديدة . فكمِد قلبه ، وعزّت عليه الدنيا ، وأحسّ أنّ جذور حياته متّصلة بجذور هذه الشجرات ...

ولم يطق المكوث طويلاً ، فلعن الماء ونهض يكمل طريقه لا يدري إلى أين !

عندما وصل الساحة أحسّ بحيويّة غريبة انتشرت فجأة في جسده . والقرية كلّها في حداء متواصل وضجيج وهرج . ألفرح يمتصّه ويحيله إلى حطبة جافّة الألياف ملتهبة . مهّدْ صهوة جوادك أيّها الفقر ، فاليـــوم يوم الابتهاج ! وسرت إليه العدوى ، ولم يدرِ إلاّ وهو بين المتظاهرين يأخذ بحدائهم بحماسة نادرة .

ألخطوات تتكاثر أيضاً وأيضاً ... تزحف على أعصابه، تسري فيها كملايين من النمل . وانعقدت حلقة الدبكة ،

وارتجّت الأرض ، وصعد الغبار ... والدم يتدفّق في شريان رقبته من الفرح والنشوة والإجهاد في الرقص ... ثم وقف المختـــار فوق كومة من الحجارة وصاح بالأهلين :

ـ يا جماعة الخير .

وتوقّفت الدبكة ، وأنصت الجميع . فالقى المختار خطاباً قوبـلَ بالتصفيق .

ثم استأنفت الخطوات إيقاعها . واشتدّ الزحام ، وطغى السيل البشريّ على الهواجس والتساؤلات .

★

توالت الطـّرقات على باب « أبي الهمّات » عنيفةً ، فركض الصبيّ يفتح الباب ، وعاد إلى أبيه مسرعاً يقول:

ـ مامور شركة المياه على الباب يسأل عنك .

وهرول « أبو الهمّات » للقـاء المامور ، فرفع العمّ « سليمان » قبّعته وقدّمها أمامه وكأنّه يفتح بها الطريق إلى بيت صديقه القديم ، وقال متهلـّلاً :

ـ هـذا أنا يا « أبا الهمّات » . عيّـنوني بالوظيفة وتركت الدكّـان . كيف الماء عندكم ؟ أنا بالخدمة . أرأيت الأيّام كيف تتغيّـر ؟

وتشابك الرجلان في عناق طويل ... كجبلين من الوداد .

القاتل

ـ تريد أن تعرف كيف قتلت « يوسف الفحل » ؟

وقهقه بعصبيّة ، حتى امتلأت القاعة بالصدى . ولم يلتفت اللاعبون الشاخصةُ أبصارُهم ، ولا ولدُ القهوة الذي اندسّ بين الزبائن يحمل صينيّة الشراب بين الضجيج .

ـ حسناً . سأقصّ عليك الخبر . ولكن استمع إليّ ؛ يقولون لك إنّي فقدت شعوري من اليأس ! لا تصدّقهم ، فأنا أمارس أفراحي وأحزاني كلّها على هذه الرّقاع الخُضر .

واجتهد حتى يزدرد ريقه ، وحرابُ الشرر تتنافر من دائرة عينيه الدامية ، وتجاعيد وجهه تُجالد زحف السنين .

ـ إستمع إليّ . أشكرك يا سيّدي لأنّك تستمع إليّ . لعلّك زائر جديد . إفعل ما يبدو لك ، فأنا لا أقول شيئاً ! . .

ومرّ رجل بدين يلعن الحظّ ، فحاد محدّثي عن طريقه ، ثم دنا يهمس في أذني :

ـ ألناس هنا لم يبقوا يستمعون إليّ . حتى صاحب هذا المكان لم يبقَ يطيق حديثي . لعلّ قصّتي مملّة . وأمّا أنت فمستمع ملائم ، لأنّك زبون جديد .

وتوقّف يرمق بطرْف عينه دولابَ «الروليت» . وصمت برهة قبل أن يكمل :

ـ ماذا كنت أقول ؟ ! . . نعم . . . نعم . . . قلت لك إنّي أمارس هنا أفراحي وأحزاني على هذه الرقاع الخضر . منذ سنة أو أكثر . لست أذكر (الأيّام هنا تسير ببطء وبلاهة ، وليس إلاّ الدولاب يسرع) .

في الخارج كانت الريح تصفر بصوت أبحّ ، وتسعل كأنّها أصيبت بزكام كانون الثاني . ولكنّ العراء الحزين لا تصل أنفاسه الصقيعيّة إلى الشموع المحتمية بالجدران ،

ولا إلى الزينة الزاهية المعلّقة بألوانها بين السقف والزوايا .

ـ أنظر ! أنظر ! « كلّ عام وأنتم بخير ! » يا لهم من سفّاكين !

وقاوم جفناه البطيئان أثقال التعب والسهر والسنين . وبريق الحقد خلفهما هو الحقيقة الوحيدة الباقية من هذا الهيكل المتداعي .

وحكّ ما بين شعرات رأسه القليلة البيضاء متذكّراً :

ـ أنظر أين صرنا ! نكون في حديث ونصير في حديث . قلت لك إني أمارس هنا أحزاني وأفراحي . أليس كذلك ؟ بلى . . . بلى . . . أتعرف ماذا أفعل يوم تسودّ في وجهي الدنيا ؟ أحزم أمري ، وأتوجّه إلى هنا ، أمارس هوايتي بشراسة وعنف . أغضب ، أشاكس ، أجنّ ، وأخيراً أخرج بالنتيجة المزمنة . . . أخسر كلّ ما أحمل من نقودي ، وأنزوي في آخر القاعة أتفرّج على اللاعبين . ولكنّي أنفّسُ عن قلبي ، وأحسُّ أنّي فعلت شيئاً ما . . . فأرتاح !

ثم قال بين ضحكة صفراء، وتنفس ٍ كقفز الأرانب:

ـ أتصدّق أنّهم كانوا يدعونني « البطـــل » ؟! قل لي : لماذا ؟ لأنّني كنت أرهب نصف المدينة . كنت عماد الحيّ كلّـه من أوّل « الجمّـيزة » إلى جسر النهر . « حبيب باشا » ـ رحمات الله عليه ـ هزّ كتفي وقال : إذهب، أنت أرجل مَن عرفت !.. ثم عيّـنني في خدمته ، فصرت أحمي عربته الفخمة بخيولها المطهّمة ، وأنا ممتطٍ وراءه حصاني وعيناي تطوفـــان على الشارع ، أنظر إلى الناس من فوق مثل النسر المُدِلّ . عشرة أعوام من العزّ ما مرَّ مثلُها على رجل ـ سقى الله تلك الأيّـام ! ـ من كان يجرؤ على تحدّي البطل ؟! من كان يحلم بمجده ؟ يعقف شاربيه ، وتقدح عينـــاه بالغضب المتعالي عندما يزجر حصانه أو يفحص الأرض بنضوته النحاسيّـة ذات الرنين . أقول لك ـ وصدّقني ـ إنّ عيون الحسان كانت تبصبص عليّ من خلف خصاص النوافـذ ، وعبر شِبـّاك الشرفات ، إذا تناهى إلى أسماعهنّ في الخدور وقعُ حوافر فرسي على الطرقات المبلّطة ... فهل عرفت مـــا قيمة «البطل» ؟! كان ذلك قبل أن تولد أنت !! كم لك من العمر؟

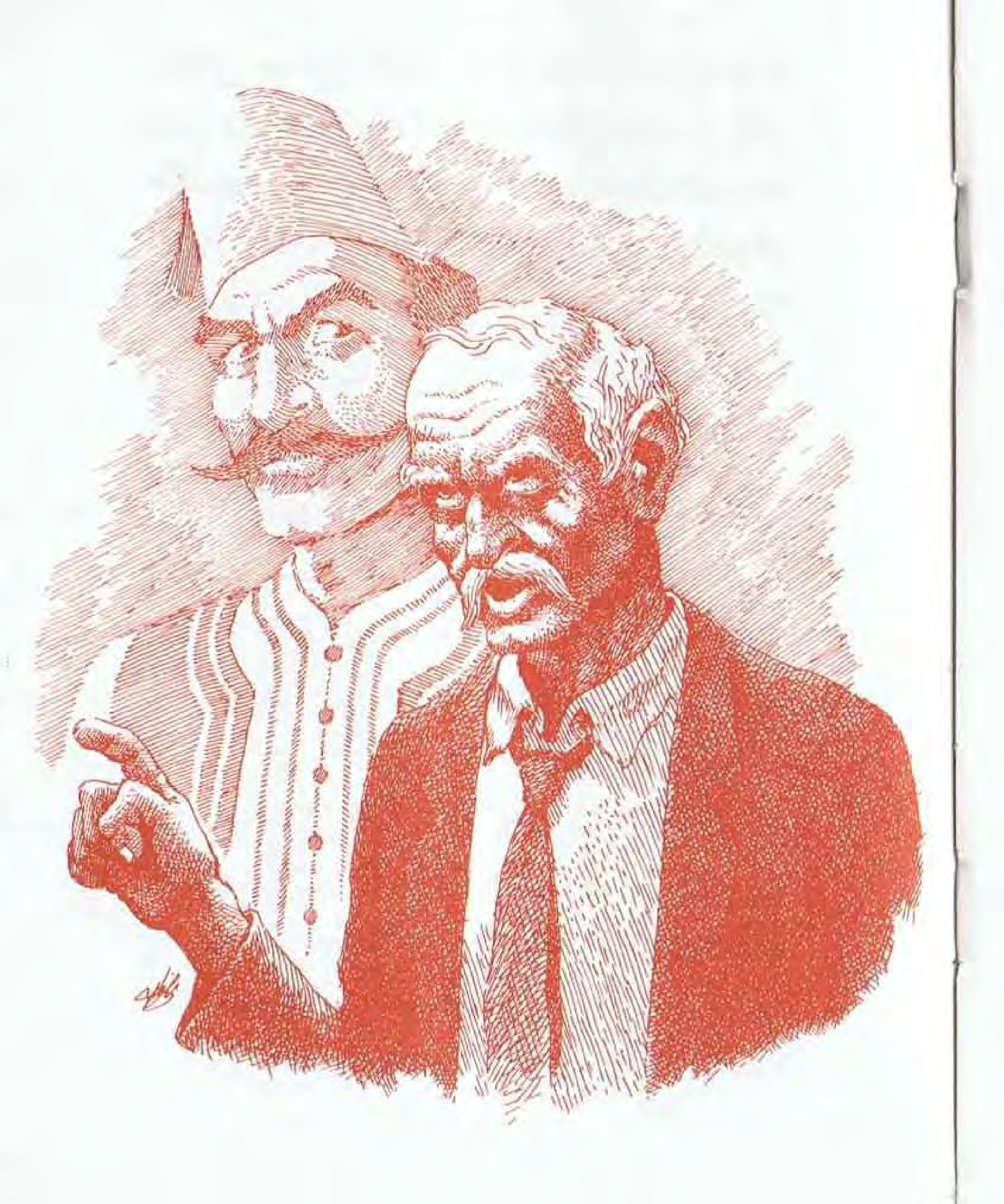
ثلاثون ، أو أكثر قليلاً ... أليس كذلك ؟ ولكن هذا الحديث من أربعين عاماً . أربعين بالضبط لأنّـني منـذ أيّام احتفلت بعيد ميلادي السبعين . وكنت يومذاك في مثل عمرك . إحتفلت به هنا ـ كعادتي ـ فضحكت ومرحت ووزّعت على الأولاد ما فيه النصيب ، وأنفقت أكثر من العادة . أفرغت جميـع نقودي، وعدت إلى البيت. إحتفلت بأفراحي هنا ـ أتسمع ؟ ـ فجوّ البيت أصبح يضايقني ، ويمزّقني ، ويشعرني بشبح الأيّام الماضية .

ومرّت سحابة من الرعب على جبينه برقت لها عيناه واستدارتا . وجفّت الكلمات على شفتيه ، وتساقطت كالثمرات اليابسة :

ـ شبح الأيّـام الماضية لا يزال يلاحقني إلى هذا الذلّ !..

وبكى كالطفل الخائف . وأمسكني من يدي وهزّها بعنف .

ـ رأيته ذلك اليوم ـ أقصد الشبح ـ فكان عملاقاً يرتدي السواد من رأسه حتى قدميه . وجهه ملفّـع ،



وخطواته بطيئة ، وجسمه ثقيل . ومضى يجرجر جسمه الحزين صوبي ... فتراجعت في الظلمة . وكانت الغرفة مغلقة . زجاج باب الشرفة انكسر فوق كتفي . إحتوتني عتمة الليل الواسع المطلّة على النهر . بقيت أتراجع . سمعت خرير ماء النهر . صار ماء النهر لاسعاً كالسنة اللهيب . ظلّ الشبح يلاحقني وهو صامت ، ينوء بظلّه الأسود عليّ ، ويدنو منّي ببطء . فلمّا اقترب منّي كان ظهري إلى النهر ... ثم قهقه في وجهي قهقهة عالية ، فسقطتُ رويداً رويداً في النهر ، وتحوّل النهر إلى بئر من النار ، ثم تحوّل إلى زوبعة تدور ، ثم تحوّل إلى دولاب حديديّ عليه أرقام ملوّنة حُمر وسود ، ثم حمر وسود . وابتلّت ثيابي . وغمرني وحل النهر. وأحرقني اللهب ، ودار رأسي مع الدولاب بأرقامه الحمر والسود ... وفتحت عينيّ ، تلك الليلة ، فادركت أنّي كنت في الحلم . كان العرق يسيح من جسمي فتبتلّ به ثيابي ، ولم أنم طيلة ذلك الليل . ألشبح الأسود ! الشبح الأسود ! أتدري ما هو الشبح الأسود يا بنيّ ؟! إنّه شبابي الذي يلاحقني إلى هذا الذلّ ، وقد أبى أن يموت أو يتوارى . بل ظلّ

يلاحقني بعد تلك الليلة ، وفي كلّ ليلة ، فلا أستطيع له دفعاً ، ولا أقوى على التواري من طريقه . أريد أن أقتله فاتخلّص منه . لكنّني لا أكاد أصل إليــه حتى أرى أصابعي متشبّثة بعنق الظلام . إنّ أوهامي تصلبني على السرير الذي يتمدّد فوقه الأرق .

بدأ الرجل يتنفّس بارتياح ، بعد أن أفرغ من صدره الكلمات . ثم قال بإلحاح :

ـ وعدتك أن أخبرك قصّة قتلي « ليوسف الفحل » . إصبر ولا تعجّل عليّ . ساخبرك كيف قتلته . أتعرف شيئاً عن الهامة ؟ أجل ، الهامة ، ألا تعرفها ؟ يسمّونها أيضاً الصدى ! حسناً ، سأخبرك عنها . أنا أثرثر أكثر من اللزوم ، أليس كذلك ؟ لا تلمني يا بنيّ ، فأنا أيضاً رجل أكثر من اللزوم في أرقام الناس . أنا الصفر الذي يزعج اللاعبين . ألصفر ! هه !؟ الصفر !

وتأمّل طاولة اللاعبين ، وابتلع ريقه بصعوبة قبل أن يكمل .

ـ كان جدّي يروي لنا قصصاً كثيرة ، ولكنّي لم

أحفظ من حكاياته إلاّ قصّة الهامة . إنّها طير غريب يعيش في رأس الإنسان ويخرج منه عند الموت . فإذا مات الإنسان مقتولاً خرجت الهامة من رأسه ووقفت على قبره وأخذت تصاى وتنعب حتى تقلق الحيّ أو ياخذوا بثاره . أتظنّ أنّ هذه خرافة ؟ لا ! صدّقني ، إنّهـا حقيقة . إسالني أنا أقصّ عليك أخبــارها . أنا قتلت « يوسف الفحل » الفارس الذي تقدح نضوة حصانه شرراً فوق بلاط « بيروت » القديمة . وهامته لا تزال تلاحقني إلى الآن ، تصاى وتنعب وتملأ حيــاتي إزعاجاً ، تغرس مخالبها في قلبي ، وتمزّق بنعيبها صدري وأعصــابي ورموش عينيّ . قتلت « يوسف الفحل » حتى استحال رجلاً تعساً حقيراً . وإليك القصَّة بلا مقدّمات .

قال الرجل :

ـ كان بيتنا في ذلك الزمان على « الجمّيزة » . ولم تكن مثل اليوم عامرة بالسكّان ، بل كانت منطقة خربة وبعيدة عن المدينة . وكان الشبّان يجتازون طرق الصبّير الوعرة ليصلوا إلى دارنا كلّ مساء ، يسألون الخاطر ، ويتسقّطون الأخبار ، ويعتزّون بنا نحن زينة الرجال .

أقول لك « نحن » ، لأنّنا كنّا ثلاثـــة إخوة على قلب واحد ورأي واحـــد . الحاصل ... أنا أطيل عليـك الكلام . أليس كذلك ؟ ولكن لا تتضجَّر ، استمـع إلى النهاية ، وسوف تعلم كل شيء . جاءني يوماً رسولٌ من عند الشيخ « سعدي العبّاس » ، وقال لي : « الشيخ يسلّـم عليك ويدعوك إلى فنجان قهوة ». فقلت : « خاطر الشيخ مسؤول . بلّـغه تحيّاتي ، وأنا قادم إليه » . الحاصل ... استقبلني الرجل بالـتّرحاب وعمل من قيمتي فضيّـفني الشرابات والحلو وكلّ مـــا يلزم . ثم جلس يحدّثني ، فأشار من طرف خفيّ إلى مـــا كان يسمع عن رجولتي وبطشي ، وأنّـه يطمع في صداقتي . فقلت له متعذّراً : « معاذ الله يا شيخ سعدي . أنا لست على قـــدر المقام » . فطيّـب خاطري وقال : « مقامك عندنا فوق ما تتصوّر » . فلمّا نهضت مودّعاً ، دسّ في جيبي مغلّفاً وقـــال : « هذا ظرف أرجو ألاّ تفضّه إلاّ وأنت في بيتك ! »

« أتدري ماذا كان في الظرف ؟ أتدري ؟ وصلت إلى البيت ولم أكد أصدّق ! أحيانـــاً تأتي المفاجآت السارّة

سريعة ، ثم تضع نهاية إنسان وتقضي على البقيّـة الباقية من حياته . رأيت في الظرف آنذاك ـ صدّقني ، وحياةِ هذا المساء الفاضل ـ خمس مئة ريال مجيديّ دفعة واحدة ! وكانت لها قيمتها في تلك الأيّـام ... الحاصل ... في اليوم التالي ذهبت أتشكّـر الشيخ على معروفه ، فضحك وقال : « هذه إكراميّـة لك لا تستحقّ الذكر ! والأيّـام بيننا يا صاحبي ... الأيّـام بيننا ! » وتكرّرت زياراتي للشيخ ، وأنا لا أعلم سرّ تودّده إليّ ، حتى باح لي يوماً أنّـه يريد منّـي مقابل هذا الإحسان أن أحمي لعبة « الروليت » في نادي القمار الذي يديره في الفندق . وامتدحني بما لم يدع لي مجالاً للرفض . واستشرت المسكينة أمّ الأولاد فلم تمانع . فمضيت أخدم الشيخ والشاكريّة على جنـــبي ، وعيناي تقدحان ناراً . فأقف على باب الفندق أرصد الداخـــل والخارج ، وأرمق السابلة في الطريق ، وأتنحنح كلّـما التفت أحد نحو الباب فيهرول راكضاً .

« يقولون لك : البحبوحة والمال من أعراض الدنيا . لا تصدّقهم ! البحبوحة جوهر الدنيا ولذّتها . لقد استطعمت نكهة البحبوحة في تلك الأيّـام ، والظروف يأتيني في آخر

الشهر ، وإكراميات الزبائن لا تخلو من رفضٍ من قِبلي وتمنُّع . ثم صرت مع الأيام أتقبّل الإكراميّة منحنياً بالشكر . ثم أصبحت عيني بَلقاءَ ـ لا تؤاخذني على هذه الكلمة ـ وصرت أطلب الإكراميّة بتذلّل . والمال أنفقه عن سعة. ويتاح لي أن أدخل أحياناً صالة اللعب فيجذبني العالَم المسحور وشيطانُ الذوات الأنيق الضاحك كرنين الذهب . واللاعبون أراهم من صنف آخر من البشر ، يستكبرون عليّ ، أنا البطل أبا الهمّات . وبيني وبينهم بذلات أنيقة ، وخواتم برّاقة ، وعربات تجرّها الخيول .

« ومضت الكبرياء تستنجد بالتقليد ، فحزمت أمري على ارتياد الأماكن التي تدار فيها الروليت خارج محيط الشيخ . فأدرك الشيخ الخبر فأنذرني.ثم عنّفني. ثم لمّا لم ينفع الإنذار والتعنيف طردني من خدمته لأني فقدت العنفوان ، فاحلّ محلّي زلمته « الحمار » ـ لا تستغرب ! هكذا كانوا يلقّبون « زلمتهم » ، فالمشايخ يتسلّون بتحقير الأتباع ويعدّون ذلك زيادة شرف وغواية ! المهمّ ... من كان يقول إنّ « البطل » يقبل الإهانة ويسكت على تحدّيات « الحمار » ؟؟ ! »

ومضى محدّثي يضحك بالتقهقر كمن يدحرج أثقالاً متفرّقة على درجات سلّم حجريّ . ثم أكمل جادّاً :

ـ العادة... العادة ... من يقدر أن يكسر على النمر مرّة واحدة فقد أخذ وهرته وانتهى الأمر . أمّا أنا فقد استولى عليّ الشيخ مع أوّل مظروف أخذته من يده شاكراً ، ثم انتهى الأمر عندما طردني زلمته « طنوس الحمار » ذليلاً .

« وازدادت سوسة اللعب تملّكاً بي . ومثل جميع اللاعبين لم أوفّق. كانت دائماً بيني وبين الثروة دورة دولاب واحدة . تصوّر ! ولكنّ الحظّ يابى دائماً أن يستجيب .

« أوّل مرّة دخلت باب المرابي ، وقفت أمامه خجلاً . ثم صرت أقف ببابه متذلّلاً متوسّلاً ، ثم لاثماً يديه داعياً له بطول العمر ، بعد رهن الأملاك وتشديد الشروط ، حتى اضطرّت المسكينة أمّ الأولاد أن تذهب للخدمة في بيوت الناس. ومن ذلك اليوم مات « يوسف الفحل » ، وتعلّقت هامته برقبتي للانتقام له .

« ماذا؟ أتسالني كيف قتلته؟ ألم تعرف بعد أنّ يوسف الفحل هو أنا ... أنا بالذات ؟! ألم تعرف ؟ »

ومضى يبتعد عنّي ، ويملأ القاعة بضجيج حزين .

علبة الذكريات

فجأة هاجت الأمواج هياجها ، تلك الليلة ، ودخل البيتَ من الكوّة صفيرٌ أشبه بغضب الطبيعة والسماء ، وانهمر المطر في الخارج غزيراً . كان أخي الصغير يلهو وسط البيت . وتجمّع الشيخ على نفسه متأفّفاً . ودخلت أمّي وهي تغلق الباب وراءها بسرعة لتمنع حبّات المطر من الدخول معها ، ثم مضت تعدّ الطعام في زاوية أخرى. وإذا بالباب يُطرق بعنف ، ويعقب الطرقاتِ المتتالية صوتٌ عصيّ يستغيث كثور مذبوح .

ساد البيتَ وجومٌ من الخوف . والتفتت أمّي إلى الزاوية التي يقيم فيها الشيخ تتوسّل بنظراتها تفسيراً تخرج به من قلقها الشديد . وتوقّف أخي الصغير عن

اللعب كأنّه يشاركنا القلق . ولم يبقَ منّا هادئاً إلاّ الشيخ الضرير . فقد ظلّت نظراته ثابتة في مكان غير محدّد ، وقال :

- قم يا صبيّ ! إفتح الباب لنرى من القادم !

وسألت جدّي قبل أن أنهض :

- من تراه يكون ؟!

خرج الشيخ عن طور هدوئه المعتاد وهتف مؤنّباً :

- عجّل ! عجّل ! عسى ان يكون الفرج قريباً .

ومضى يفرك بيديه ، ويستعجل الثواني المتراكضة أمام بصره المطفأ .

لم أكن أعرف أنّ جدّي ينتظر من دهره شيئاً بعدما رماه الدهر بأفجعَ ما يُرمى به رجل في مثل سنّه. لم أكن أتصوّر أن نفسه تهفو إلى أمل أو ترجو رجاءً ! كان كلّ ما في حياته يسير ببطء على إيقاع واحد ، كأنّه يمضغ أيّامه مضغاً متواصلاً رتيباً ... فأيّ فرج ينتظر ؟!

ظلّت صورة جدّي مقرونة في أذهاننا بذلك البيت المرفوع على البحر ، تدخله الرياح الشتويّة من كوّة في

أعلى الجدار ، وتزوره أغاني الموج ، وأساطير البحّارة القدامى ، وأطياف مغامرات السندباد . والواقع أنّ جدّي لم يبرح ذلك البيت المربع وقد قام كعلبة وُضعت فوق الشاطىء ، ثُقبت من أعلاها فكانت الكوّة ، وثقبت في صدرها فكان الباب . كنّا نراه دوماً عند الزاوية ، وكأنّه لا يزال هناك ، بوجنتيه الموردّتين فوق شاربين كثيفين ابيضّت شعراتها مع السبعين ، وتقطّب حاجباه بعبسة مزمنة بين عينين تبرقان بحدّة كأنّهما تخترقان شيئاً مجهولاً . ومع انطفاء النور في عينيه لم نكن نصدّق أنّه أعمى ، فالبريق الحادّ ظلّ يشعّ بين جفنيه ، فيزيد الشيخ إبهاماً وغرابة ، ويضفي على أحاديثه حلاوة وطلاوة .

عاد جدّي يحثّني بعنف :

- قم يا بنيّ ! لعلّ الفرج قريب . قلت لك : لعلّ الفرج قريب !

لو لم يعلّق عينيه بأعلى الجدار تأهّباً وانتظاراً وشغفاً ، لظننت العبارة صدرت عنه بغير وعي .

كانت عيناه المطفأتان تتّسعان حتى تشملا البيت كلّه .

فلمّا استبطأني مدّ يده حـول الدكّة التي يجلس عليها يبحث عن شيء . وقال :

ـ هاتِ العصا يا ابني ! أنا سأفتح !

كان الصوت المستغيث في الخارج قد بدأ يخفت نوعاً ما ، ثم يتحوّل إلى ألوان مختلفة بين الأنين ، واللهاث الجاهد ، والنداء المخنوق ؛ فاستحثّ هذا التحوّلُ همّةَ الشيخ ، فلم ينتظر عصاه ، بل قام من موقعه ، فرأيت ، لأوّل مرّة في حياتي ، تلك الدكّة فارغة منه !

*

كان موت أبي قبل ذلك بسنوات قليلة أبشع ما نذكره من أيّام الصبا . فقد ظلّلتنا ، بعد أن غاب عنّا في تلك الظروف الغامضة، كآبةٌ طويلة وحزنٌ صامت مستمرّ . لم نكن نجرؤ على لفظ اسمه، أو السؤال عنه ، بعد أن لاحظنا أيّ التياع كان يقتلع قلب أمّنا من صدرها كلّما سمعتنا نتحدّث عنه ، وغالباً ما كان الصمت الكبير ينعصر في دمعتين محرقتين تنحدران من عينيها اللؤلؤيّتين. وتغيّرت في حياتنا أشياء كثيرة بعد ذلك ، إلاّ أنّ متعتنا الكبرى

كانت يوم نلجأ إلى كنف جدّنا في البيت البحريّ ، فنشتمّ في ظلال الشيخ رائحة أبينا الغائب . لم نكن نستطيع تصوّر الشيخ أعمى ؛ فإذا أدار وجهه نحو اليوك الذي تكدّس فيه مخزونُ القمـح والزبيب والكشك والبرغل الأسمر والتين المعقود بالسكّر ، كنّا على يقين تامّ بأنّه يرعى بناظريه صندوق المـؤن ويحسب في سرّه حساب الأيّام الباقية من العام ، حتى إذا اطمأنّ إلى أنّ المخزون يكفي ريثما يقدم الموسم التالي استبشر وارتاح ، وهدأت نفسه ، فمضى في ما هو فيه .

كنّا ننتظر أيّام العطل المدرسيّة بشغف لنُمضي الوقت أمام الشيخ الثابت في مكانه من زاوية البيت البحريّ ، مغمورين بالدفء والأساطير . وكنّا نعجب من أين تأتيه الأخبار الوفيرة حين كان لا يبرح الزاوية ولا يزوره من الناس أحد ، اللهمّ إلاّ صديقه الوحيـد « أبو رامز المكاري » ، الملقّب « بعنتر الزمان » ! ؟

لقد كنّا نترقّب مع الشيخ هبوط الليل وقدوم « أبي رامز » يزور صديقه في العشيّات ، فيجلس إلى جواره

يسلّيه عن حزنه ويتسلّى به ، ويخفّف عنه كآبته ، ويلهيه عن أساه. وغالباً ما يتحدّث الرجلان الهرمان بألفاظ غريبة علينا ، كقصص البحار البعيدة والجزر المهملة ، يتبادلانها من فوق أفهامنا الصغيرة . ويتّصل الحديث بالحديث خلال كلمة تلقى سريعاً ، وآهةٍ يعقبها وجومٌ كفراغ الهواء في طريق رياح خفيّة .

تلك الليلةَ نهض « عنتر الزمان » عن جوار صديقه ، كأنّه يقتلع نفسه عنه اقتلاعاً . وهمهم الشيخ القاعد في الزاوية ، بعد أن جمع رجليه وصفق بيديه وضرب بهما على ركبته موقّعاً كلامه :

ـ ألسهرة بأوّلها يا « عنتر الزمان » .

ـ « عنتر » كانت له أيّام يا « بو صبحي » .

شدّد على الكلمة الأخيرة من غير أن يقصد . وقد طالما تحاشى أن يذكر هذا الاسم الذي يفتح في صدر الشيخ جروحاً . فلمّا خرجت من فمه أخذ يتبرّأ منها بحركات تدلّ على انزعاجه . كانت الكلمة كافية لتحريك الحزن الدفين . فذبلت عينا جدّي ، واتّكأ برأسه على كتفه

ذليلاً ، وفرك يديه على ركبته مراراً . ومضى يردّد :

ـ ألله ! ألله !

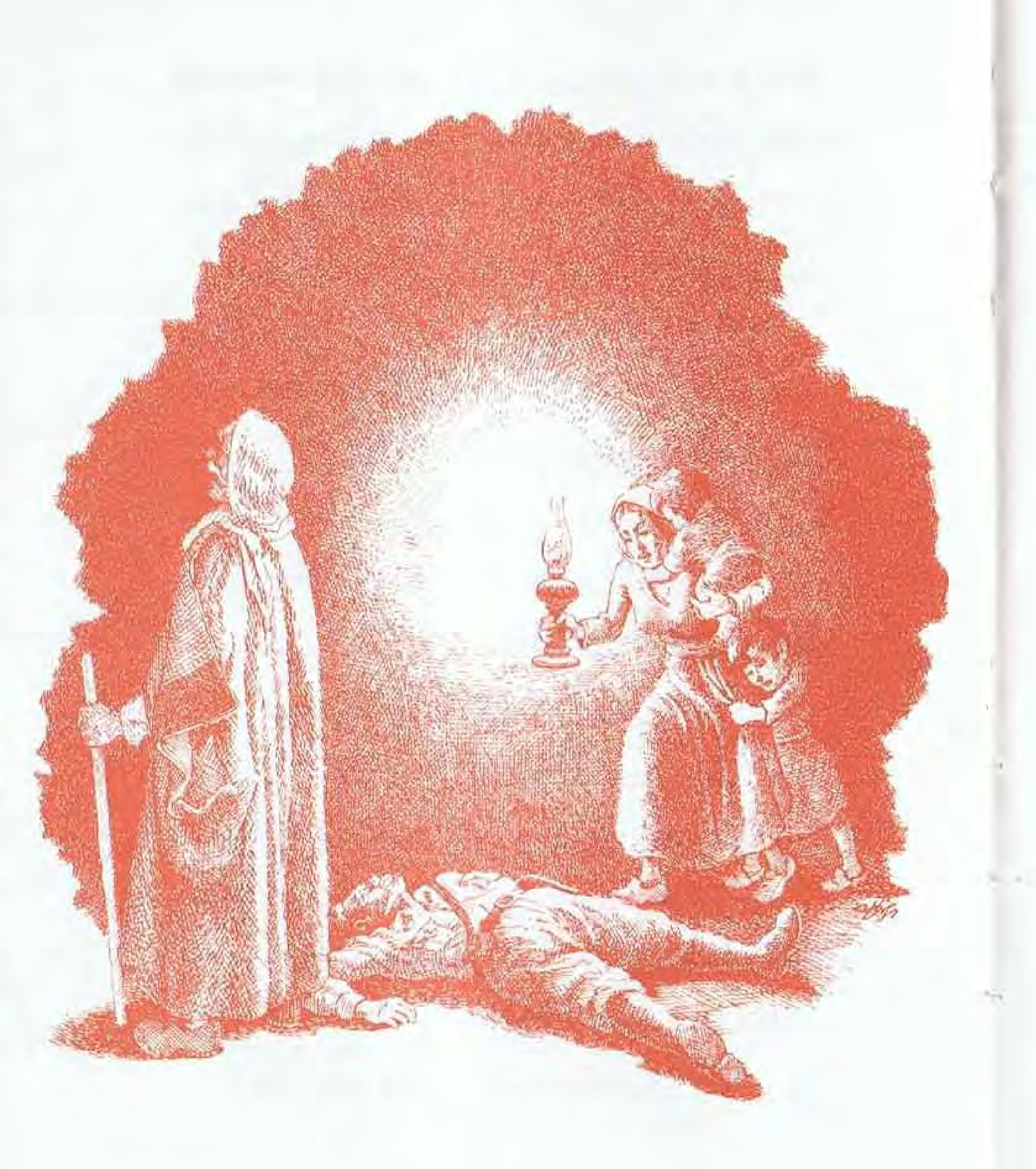
لم يدرِ « عنتر الزمان » كيف يعتذر من صديقه . فارتبك ، وتعثّرت رجله بعربة أخي الصغير وهو يغادر البيت . ثم اختفى في الظلام .

لذلك كانت نظراتنا تتساءل ونحن نسمع الطّرقات وأصوات الاستغاثة :

ـ ترى هل أصاب « أبا رامز » مكروهٌ ؟

★

مشى الشيخ على تردّدنا بخطوات ثابتة ، ولم ينتظر من أحد أن يقتاده. فلمّا وصل الباب عالج المزلاج بخفّة، فانفتح المصراعان، وهبّت منها عاصفةٌ كادت تقتلع البيت من جذوره . هربت أختي وراء فستان أمّي فانحنت بدورها تلتقط أخي الصغير وتضمّه إلى صدرها بقوّة ضد الرياح والبرد . ولمّا عاد جدّي كان وجهه متهلّلاً ، تلعب الريح بشرّابة قبّعته الصوف ، ويتراقص شارباه فرحاً . كان يجرّ وراءه جثّة رجل تتضرّج بدمائها .



فلمّا وصل بها إلى صحن الدار ألقى بها أرضاً وهتف بأمّي:

ـ هاتي القنديل يا « سميّه » وانظري في وجه هذا الرجل ، وتفرّسيه جيّداً ، وقولي ما ترين !

كان اللصوص المسلّحون يتسرّبون إلى قريتنا ويلقون الرعب بين المزارعين ، كلّما غفلت عيونُ رجال الأمن. وقد كنت يومذاك صغيراً لا أفقه معاني هذه الأحداث إلاّ من خلال أبي الذي كان يبدو دائماً مكفهرّ الوجه بقامته المديدة ، وعناده ، وثباته . كان أبي في حقله ، فاعترضه رجال العصابة . شتموه فلم يجب . وسألوه عن الطريق إلى قريتنا فلم يجب . وقال رئيس العصابة :

ـ لعلّه أخرس لا يتكلّم ، أو أصمّ لا يسمع !؟ سنجرّب على كلّ حال ، هل يستغيث إذا اخترق الرصاص جسده !

وأخذ مسدّسه بيده وجعل يتسلّى به قبل أن يطلق

الرصاصة القاتلة . يخبرنا المزارعون الذين كانوا في الحقل أنّ أبي لم يستغث عندما سقط في حقله كغصن شجرة يهوي إلى الأرض!..

عندما جاءت أمّي بالقنديل سقط من يدها وصرخت بذعر :

ـ هذا هو رئيس العصابة !

تنهّد الشيخ بارتياح ، ومضى إلى دكّته يجلس فيها مطمئنّاً . فاغلقت أمّي الباب ، ووقفت تسنده بظهرها متصلّبة خائفة . قالت للشيخ وهي تولول :

ـ عمّي ! ما العمل ؟ لعلّهم يأتون هنا للبحث عنه ؟

ـ ليبحثوا . وسوف يجدونه كما ترين !

لم تمضِ لحظات حتى كان بيتنا الصغير يغصّ باهل القرية . ومضيت أتفرّس وجوههم في ضـــوء مصباحنا الشاحب ، فلم أجد وجه « عنتر الزمان » بين الموجودين ، فمضيت أبحث عنه طويلاً . لم يكن منتظَراً أن يتركنا في تلك اللحظات الحاسمة .

إنعقد المؤتمر في البيت الصغير ، وأدلى كلٌّ برأيه . وبقي

الشيخ سادراً في موضعه من الزاوية ، تشعّ من داخله غبطةٌ روحيّة عميقة كانت تخطفه باستمرار عمّا يجري حوله ، وتشدّه إلى تأمّلات لذيذة . فجأة توضّح لي كلّ شيء من خلال الضجيج الكثيف . وهتف هاتف :

ـ لنبعده من هنا !

وقال آخر :

ـ لعلّهم ينتقمون من القرية كلّها بسببه .

وفتل أحدهم شاربيه قائلاً :

ـ يا جماعة ! تصرّفوا كالرجال . إذا لم نتصرّف بشجاعة معسونا في أرضنا ودعسوا على رقابنا .

واعترض شابّ بحماسة مقرونة بالأسى :

ـ ليس في بيوتنا إلاّ العصيّ وبنادق الصيد !

خرج جدّي عن صمته لأوّل مرّة ، وهتف مترنّماً :

ـ العصيّ للكلاب ! دعوهم يأتون ! والله لن أبرح هذه الزاوية ولو جاؤوا بطابور من العسكر .

قال « فارس أبو سمعان » :

ـ ولكنّك هنا بلا سلاح ، أعمى ضرير ! ونحن لا

نقدر أن نحميك !

قال جدّي :

ـ وماذا تريدون منّي ؟ أن أغادر بيتي وأترك أرضي ؟

ـ ولكنّهم مسلّحون !

ضحك الشيخ وتلمّس عصاه . ثم أخـذ يديرها بين يديه في حبور :

ـ أليوم نلت ما كنت أشتاقه . سبحان الله ، حَدْسي لا يخيب ! كنت متوقّعاً أن يأتي الفرج . وقـد أتى كما ترون. لو متّ قبل أن يُقتل قاتل ابني « صبحي » لكانت حياتي أذلّ من برغشة .

وعلا صوت من المجتمعين :

ـ لكنّهم سيقتلونك يا « أبا صبحي » !

وردّ الشيخ بسرعة وحسم :

ـ قتلوا من قبلي « صبحي » !

همد الصراخ تهيّباً أمام العبارة الأخيرة . فالتفتُّ إلى أمّي أسألها :

ـ من قتل الرجل يا أمّاه ؟

تفجّرت نظراتها بالحقد المتشفّي وهي تنظر إلى النجمة البرّاقة على صدر الرجل القتيل . إنّ أبي لم يستغث عندما سقط في حقله كغصن شجرة يهوي إلى الأرض . أمّا رئيس العصابة فقـد استغـاث كالنسـاء ، وولول أمام بيتنا قبل أن تهمد أنفاسه . وهذا ما أدخل إلى قلبي الصغير بعضَ العزاء . وأعدت السؤال بحماسة :

ـ من قتل الرجل يا أمّاه ؟

نظرت في وجوه الناس ولم تحر جواباً . كانت تبحث مثلي عن وجه « عنتر الزمان » فـلا تجده بين الوجوه الكثيرة . وهمست في أذني قائلة :

ـ لعلّه عمّك « عنتر الزمان » .

ولمّا عاد الضجيج هتف جدّي بأعلى صوته، فخبت الأصوات كلّها :

ـ عبثاً ، لا تقنعوني . هنا سأبقى !

*

بعد يومين كان علينا أن نترك الشيخ وحيداً ونعود إلى المدينة لاستئناف الدروس . وقد بلبلت هذه الأحداثُ

مخيّلتي الصغيرة ، وسالت أمّي في الطريق :

– أين « عنتر الزمان » ؟ لم نبقَ نراه !

زجرتني أمّي بيدها وقالت :

– أسكت ! « عنتر الزمان » بطل، ولو اكتسى رأسه بالشيب .

وازدحمت في ذهني أسئلة كثيرة : « جدّي ! لماذا لا يأتي معنا إلى المدينة ؟ ماذا سيصيبه بين الجدران الأربعة على شاطىء البحر ؟.. ماذا لو هبّت الرياح مرّة ثانية ، وتساقط المطر غزيراً ، ودخلت الزوابع إلى البيت من جديد ؟!

ومن براءتي قفز السؤال من شفتيّ :

– أمّي ! أليس القتل حراماً ؟

زجرتني مرّة ثانية ، كما زجرت دموعَ عينيها ، وراحت تنظر إلى الحقول تختفي وراءنا فيغيب عن أعيننا البيتُ البحريّ خلف الأمواج ... لآخر مرّة .

الأسئِلة

١ – عنب تشرين

– كيف تبرز شخصيّة « المختار » في القصة ؟ أتراه رجلاً طيّباً أم شريراً ؟ أتراه منحازاً ؟

– لماذا مات الاستاذ « عبود » في آخر القصّة ؟

– أتجد في هذه القصّة بعض العبارات العاميّة ؟ ما هي ؟ لماذا استعملها الكاتب ؟

٢ – الصراخ والطائر الملوّن

– إلى أي شيء يرمز « الطائر الملوّن » في هذه القصة ؟

– وردت في القصة عبارة : « الربيع ملء فم الوادي ، يتنفس برائحة الصعتر » . أشر الى لفظتين في هذه العبارة استُعملتا بالمعنى المجازيّ .

– ما هي العقدة التي تدور عليها هذه القصّة ؟

– أتعتبر هذه القصّة واقعيّة أم خياليّة ؟ لماذا ؟

٣ – بعد ما تساقط الثلج

– من أين أتت هذه المرأة التي ظهرت للأولاد على ضفّة النهر ؟ وما كان قصدها ؟

– لماذا كان « مروان » أكثر جرأة من رفقائه ؟ وهل خاف من المرأة ؟ ما الدليل على ذلك ؟

– هل كان هؤلاء الصّبية أشراراً ؟ وهل ندموا على إساءتهم الى المرأة المسكينة ؟

٤ – الخطوات

– ما هي مهنة « المعلّم سليمان » الأصلية ؟ ولماذا بدّلها ؟

– لماذا حنّ « المعلّم سليمان » الى غابة الزيتون عندما مرّ بقربها ؟ هل كانت ملكه قبل ذلك ؟ لماذا حزن عليها ؟

٥ – القاتل

– الرجل الذي يتكلّم في القصة رجل شيخ . كيف نعرف ذلك ؟ ثم ما هي الأوصاف التي تدل على هرمه ؟

– ماذا كان عمل الرجل المتكلّم ؟ ولماذا يئس من الحياة ؟

– ما هي « الهامة » المذكورة في هذه القصّة ؟

٦ – علبة الذكريات

– الى أيّ شيء ترمز « علبة الذكريات » ؟ هل تجد في القصّة تشبيهاً لبيت الرجل الشيخ بالعلبة ؟ أذكر الفقرة الدالّة على ذلك . ثم لماذا شبّه البيت بالعلبة ؟

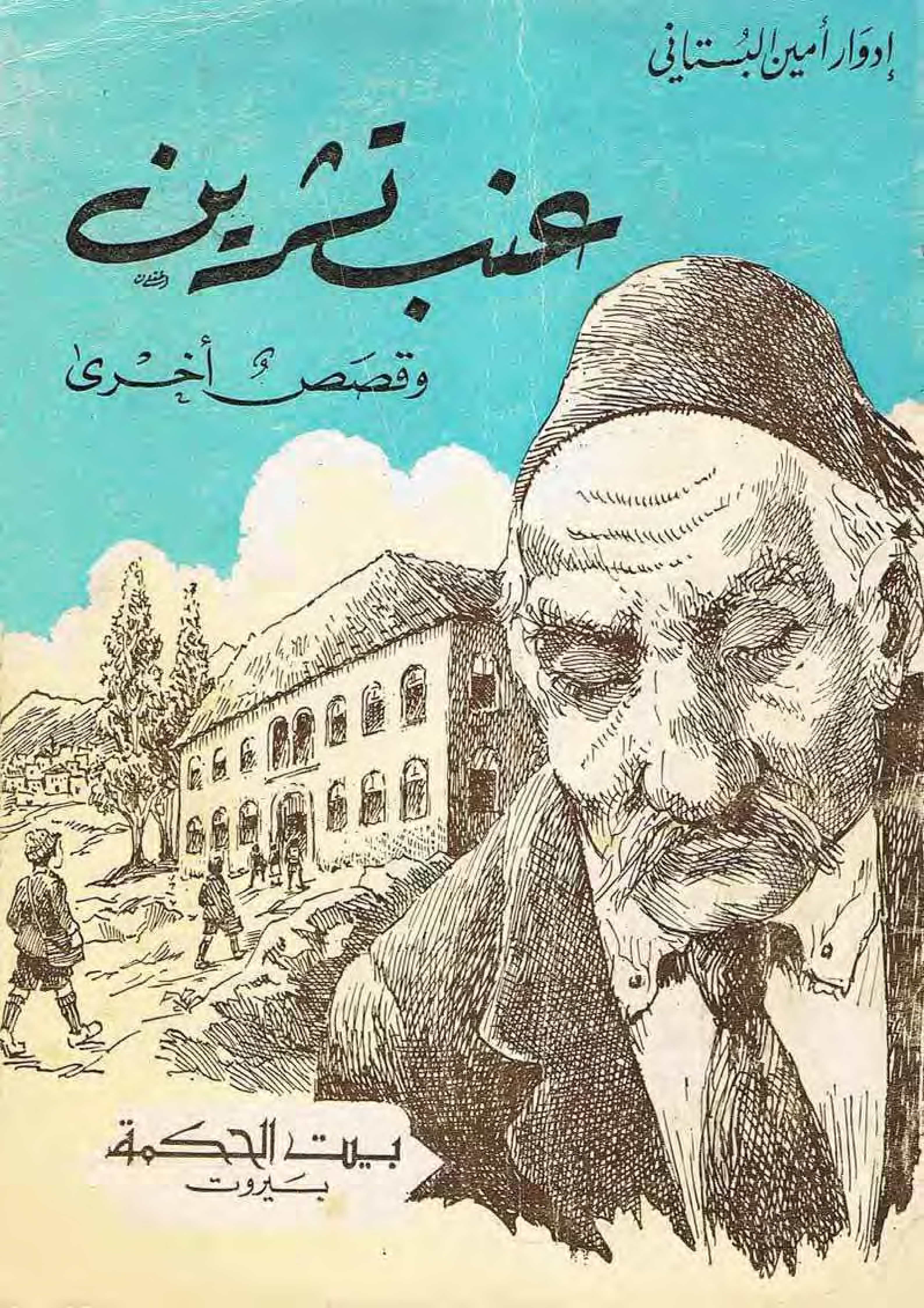
– « بقي الشيخ سادراً في موضعه » . ما معنى « سادر » ؟ كيف تعربها في هذه الجملة ؟

– « وغالباً ما يتحدّث الرجلان الهرمان بألفاظ غريبة علينا ، كقصص البحار البعيدة والجزر المهملة » . في أيّة صفحة وردت هذه الجملة ؟ وبماذا شبّه الكاتب الحديثَ المتبادل بين الرجلين ؟ ومن هما هذان الرجلان ؟

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ١٥ تشرين اول (اكتوبر) ١٩٩١
على مطابع دار غنــدور ش.م.م.
بــيروت

٢١٥/١٠ - ١٩٩١


إدوار أمين البستاني
عنب تشرين
وقصص أخرى
بيت الحكمة
بيروت